

الاستشراق

والدراسات الإسلامية

تأليف

أ.د. عبد القهار داود عبد الله العاني

رئيس قسم الدراسات القرآنية والحديثية

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

دار الفرقان

للنشر والتوزيع

الاستشراق

والدراسات الإسلامية

الطَّبعَة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(٢١٦٤ / ٧ / ٢٠٠٠)

٢٨٢,٤

عبد عبد الواحد، عبدالقهار

الاستشراق والدراسات الإسلامية / عبدالقهار عبد

الواحد.. عمان : دار الفرقان ، ٢٠٠٠

(٢١٤)ص

ر.أ (٢١٦٤/٧/٢٠٠٠)

١- الاستشراق ٢- الدراسات الإسلامية

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة :

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

هاتف: ٤٦٤٠٩٣٧ - ٤٦٤٥٩٣٧ - فاكس ٤٦٢٨٣٦٢

ص.ب ٩٢١٥٢٦ - عمان - الأردن

إربد - مقابل جامعة اليرموك - تلفاكس ٧٢٧٦٥٠٦

الاستشراق

والدراسات الإسلامية

تأليف

أ.د. عبد القهار داود عبد الله العاني

رئيس قسم الدراسات القرآنية والحديثية
الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

دار الفرقان
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن للدراسات الاستشراقية مناهج ارتضاها أهلها وكانت لهم بحوث مستفيضة ومختصرة عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والدراسات الأخرى المتعلقة بهما، ولما كانت هذه المناهج مختلفة من حيث الهدف والقدرة العلمية والتحقيق العلمي والبحث عن المعرفة بحثاً مجرداً أو مشوباً بالأهواء أردت في هذه الدرسات أن أبيِّنَ ما ذكرته سابقا بطريقة علمية ناقدة بعيدة عن العواطف والأهواء ولكنها نابعة من العقيدة الإسلامية التي آمنت بها وأخلصت لها وأدافع عنها لأنها حق، والحق مطلب كل مؤمن وعاقل. وأن تكون هذه الدرسة سبباً في حماية الأمة في عقيدتها وفكرها وسلوكها.

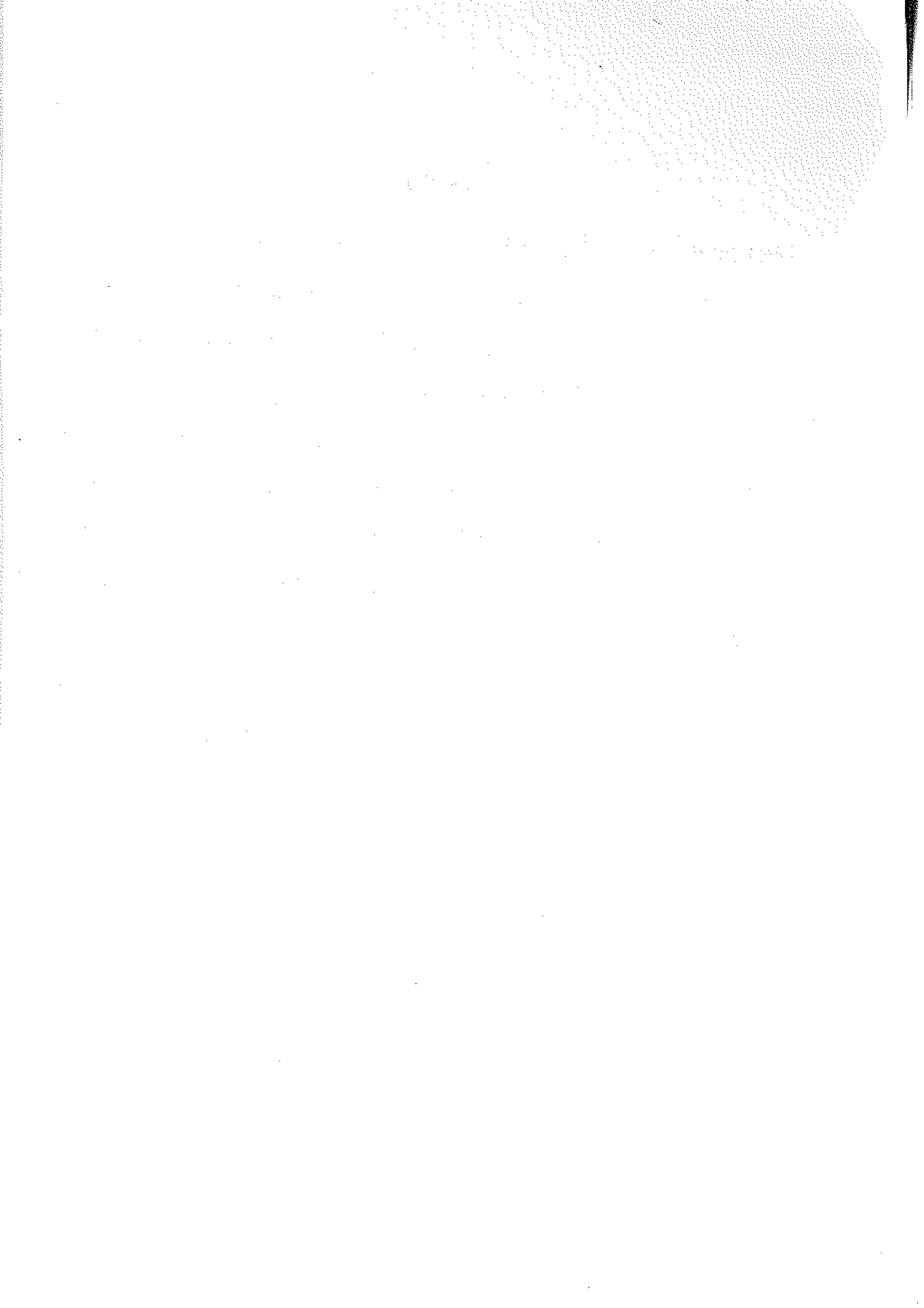
وأسال الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه تعالى وأن تكون لنا نافعة وشافعة يوم يقوم الأشهاد.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الدكتور عبد القهار داود عبد الله العاني

أستاذ الشريعة بكلية الشريعة - جامعة بغداد سابقاً

والأستاذ في قسم الدراسات القرآنية والحديثة في الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا



الفصل الأول

العلاقة بين الإسلام وأعدائه

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول

تمهيد في الاستشراق ومفاهيمه

يظهر لنا من الدراسات التاريخية المتعددة أن اهتمام العالم بالمسلمين عامة وبالعرب خاصة يعود إلى ظهور الإسلام وانتشاره على يد النبي ﷺ ثم على يدي الصحابة رضوان الله عليهم بصورة جعلت أهل العلم بالتاريخ يعدونه المعجزة الكبرى، وحيث أن الاهتمام بالعرب عند المؤرخين القدامى قد ظهر في كتب هيروديتس مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد وينوفراست تلميذ أرسطو الذي تحدث حديثا شيقاً عن طيوب بلاد العرب الشهيرة في كتابه «تاريخ النبات» والجغرافي اليوناني سترابون في مستهل القرن الأول للميلاد والمؤرخ الروماني جليني في القرن الثاني للميلاد الذي وضع لوائح بأسماء القبائل والمدن والقرى الموجودة في وسط شبه جزيرة العرب.

لقد كانت الشبهات والأوهام والخرافات هي كل ما يعرفه الأوروبيون عن العرب وجزيرتهم وديانتهم فقد (كان كل ما يعرفه الأوروبيون عن جزيرة العرب أن الرسول الكريم ولد فيها وفيها المدينتان المقدستان عند المسلمين مكة والمدينة وكان يسود بينهم اعتقاد خاطىء بأن جثمان النبي الكريم معلق في الهواء).

وقد اتجه الأوروبيون بسبب الرغبة في اكتشاف العوالم من أجل التجارة والنفوذ ولم ينسوا ما يكون من نزعتهم الدينية وتعلقهم بكنيسة القيامة والعودة إليها ومحاولة ذلك بشتى الطرق «وإذا البرتغاليون قد استطاعوا أن يسيطروا على شواطىء شبة جزيرة العرب

الجنوبية فإنهم قد فشلوا في النفوذ إلى السواحل وارتدت سفنهم مدحورة من أمام عدن وجدة، وكانت غايتهم في السيطرة على السواحل أن يؤمنوا الطريق البري إلى الهند أيضا كما أنهم يحلمون بالاستيلاء على جثمان النبي ﷺ في المدينة ليطلبوا عندها تسليمهم كنيسة القيامة فدية له».

ولقد ظل الأوروبيون يتتبعون العرب وأحوالهم حتى إننا نجد بعض الذين نشروا عن العرب كتبا من نسج الخيال لا من واقع الحقيقة وحيث إن الحقائق لم يثبتها الغربيون ولم يكتبوا فيها فقد راحت «قصة الرحلات الشهيرة التي قام بها السيد ليلان؟ في الثانية عشرة حتى الستين من عمره إلى أقطار العالم الأربعة» وقد ظهر من هذه الرحلة ثلاث طبعات في باريس ما بين سنتي (١٦٤٨، ١٦٥٨) وترجمت إلى الإنجليزية سنة (١٦٦٠) وإن ما جاء في هذه الرحلات عن بلاد العرب كثير منه من نسج الخيال وبعيد عن الواقع والدراسة المتأنية تظهر لنا أن فنسان ليلان ليس سوى بطل قصص خيالية وهو ليس بحارا وإنما رائد من رواد المكتبات تمكن من جمع المعلومات من الكتب المختلفة غثها وسمينها.

ويبدو أن الرغبة في معرفة العلوم التي ازدهرت عند المسلمين دفعت الأروبيين لأن ينهلوا منها ويستفيدوا من حقائقها وتجاربها ولهذا نجد أن (جربر) سنة(٩٩٩م) قد (قصد الأندلس أيام ازدهار حضارتها وتلقى العلوم والمعارف في مدارسها وأن طلاباً من الرهبان وغيرهم قصدوا قرطبة وأخذوا المعرفة من علمائها وتعلموا من مدارسها واقتبسوا من علومها، وساعد فردريك الثاني وألفونس ملك قشتالة على نشر علوم العرب وشجع الترجمة فترجموا الكتب الفلسفية والطبية والفلك والسياسة).

ولما وصلت معالم الدين آفاق المشرق والمغرب على يد الرعيل الأول من الصحب الكرام وعلى يد من واطأهم من صالح التابعين وصادق المؤمنين وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية، تلك الفتوحات التي أعطت للأمم الأخرى نماذج من القادة

المسلمين الذين اتسموا بالعدل والإنصاف وحسن الخلق والورع والزهد ما أثر في الأمم الأخرى فدخلوا في دين الله رغبة من غير إكراه تفيض أعينهم مما عرفوا من الحق وما كان أمر الفتوح إلا التبشير بدين الله وحماية حرية العقيدة وإظهارها لهم على طبيعتها من غير تشويه أو تحريف أو مغالاة، وقد ساعد على سرعة إيمانهم أنهم كانوا على علم بالإنجيل والتوراة ففيها ذكر الله والأنبياء وبشارة بظهور النبي بعد المسيح عليه السلام.

ومن هنا تدرك سر الاستجابة السريعة للإيمان من أهل الكتاب أكثر من الأمم التي كانت تدين بالوثنية التي لم يكن لها علم بالكتب السماوية وما تضمنته من الإيمان بالله واليوم الآخر والرسل فما إن ظهرت راية الإسلام وثبتت حضارته في الأندلس وغيرها حتى خاف الغرب على أهليه من أن يروا هذا النور على صفائه وربانيته فيكون لهم شرف الإسلام فعمد على عزل أهله عنه فاتخذوا أولا طريق الكتابة عن الإسلام في بحوث كلها افتراء على الإسلام وعلى نبينا محمد ﷺ مما لايصدقه عاقل ولا يرضاه أريب.

يقول برناردشو: (لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك إما جهلاً وإما تعصباً، إنهم كانوا في الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه فعندهم أن محمداً كان عدواً للمسيح، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب وفي رأيي أنه بعيد جداً من أن يكون عدواً للمسيح إنما ينبغي أن يدعى «منقذ البشرية»).

ويكفي هذا النص من رجل قد عرف بثاقب الفكر وسعة الاطلاع للدلالة على ما قلناه.

ولما وجدوا أن هذه الطريقة قد تنكشف ويظهر زيفها حين يطلع الناس على القرآن نفسه وعلى سيرة الرسول ﷺ عمدوا إلى طريقة أخرى يأتون فيها إلى أصله لعلهم يصلون إلى هدفهم عن طريق ترجمة القرآن مع مقدمات للترجمة لغرض نقد القرآن الكريم لكن عاقبة أمرهم أصبحت ضياعاً وخسراً.

فلم تكن الدراسات القرآنية إذاً وقفاً على المسلمين بل تعدت إلى غيرهم، وقد ظهرت العناية بهذه الدراسة من قبل الغرب والشرق على حد سواء وإن كانت دراسة المستشرقين الغربيين أسبق وأوسع وتتميز هذه الدراسات بأنها تمثل ثلاثة اتجاهات:

١- اتجاه غالب وهو محاولة إيجاد ثغرة من الثغرات التي يمكن لهم الطعن في الإسلام عن طريقها وهذا يدل عليه ما كتبه المستشرقون من أمثال مرجليوث وغيره من المستشرقين الإنجليز أو ما كتبه كولدتسيهر الألماني في كتابيه (العقيدة والشريعة) و(مذاهب التفسير الإسلامي) وهو يهودي معروف.

هذه الدراسات حاولت في بحثها تقصي الآراء الشاذة والأدلة الواهية واتخاذها سنداً في دراستها بعيداً عن المنهج العلمي والأمانه العلمية، يضاف إلى ذلك الجهل باللغة العربية ومآثرها والشريعة الإسلامية ومقاصدها فنصبوا من أنفسهم فقهاء ومفسرين ولغويين ومشرعين مع أنهم لو اطلعوا على شروط المفسر أو غيره لكان ذلك رادعاً لهم من أن يخوضوا في مسائل توقف بعض العلماء عنها، فكانت هذه الدراسات المرجع الفكري في العالمين الغربي والشرقي لفهم الإسلام.

ومن هنا كان التصور الإسلامي عند غير المسلمين يتسم بالنقص والخلط والافتراء وهذا يتحمل بعضه المسلمون وخاصة مَنْ تخصص في الدراسات الشرقية وأتقن لغة أجنبية إذ يشتغل كثير منهم في ترديد أقوال المستشرقين والرد عليها أحياناً وكان الواجب يقضي عليهم بأن يردوا على هذه الافتراءات باللغة الأجنبية ذاتها وهي خدمة جليلة للإسلام وللإنسانية أيضاً إذ بذلك يقف العالم على فكر إسلامي صحيح يستطيع الفرد منهم أن يتفهمه وأن يحدد موقفه منه وأن يؤمن لِماَ يرى من أصالة الفكر وإنسانيته وضرورته للبشرية خاصة وهي تعاني الصراع النفسي والمادية الماحقة والهبوط الذاتي والضياع الإنساني.

٢- وفئة أخرى أرادت أن تكتب عن القرآن بحوثاً للماجستير والدكتوراه فتناولت القرآن من وجهات مختلفة فنتج عن ذلك أن بعضهم أدرك جيداً الذروة التي وصل إليها القرآن في بلاغته وإعجازه وأنه فوق طاقة البشر فآمن بعد تقصّيه ودراسته فكانت مصدر إيمانه ونجاته وهي دراسة أقل من الأولى وتختلف عنها أحياناً في الهدف.

٣- وثمة جماعة أرادت الكتابة عن الإسلام رغبة في البحث وهي فئة قليلة خلطت في كثير من الأحيان بسبب انعدام الاختصاص والجهل وقلة المصادر الأصيلة الصحيحة التي اعتمدوها.

ونتج أيضاً عن هذه الدراسات الاستشراقية أن طلبة المسلمين الذين وردوا جامعات الغرب والشرق لم يكن لأكثرهم من الفكر الإسلامي الصحيح والتصور الصادق له ما يُمكّنهم من أن يبنوا دراستهم على أسس سليمة صحيحة فكان التصور الغربي للإسلام هو القاعدة التي بنى عليها هؤلاء الدارسون أبحاثهم وكتاباتهم وحتى الذين كانت لهم بعض الدراسة عن الإسلام فإنهم لم يدركوا بعد أبعاد الخطة الاستشراقية وطرقها في إثبات مفاهيم معينة قد يظن في كثير من الأحيان أنها تعود إلى أصالة المنهج وعلميته وكانت نظرتهم إلى هؤلاء المستشرقين أحياناً من خلال جزئيات معينة أوردوها في محاضراتهم أو أثبتوها في كتبهم كأن يكون قد مدح الإسلام في نظرته الإنسانية أو أثنى على الرسول محمد ﷺ في ورعه وزهده فقد تكون هذه الجزئيات سبباً في إيهامهم إيهاماً يصل إلى التمجيد بهذا المستشرق أو ذاك، كانت النظرة العلمية تقضي بأن نحكم على مفكر معين من خلال القواعد العامة التي يبني عليها أبحاثه والمصادر التي يستقي منها معلوماته والطريقة التي يعالج بها شبهات معينة قد افتريت على الإسلام وليسمح لي كل الدارسين في البلاد الغربية أو الشرقية ممن سمعت عنهم أو قرأت لهم أنه لم يخل أحد منهم من التأثر إما بالمنهج الاستشراقي كله وهم الذين تبنوا منهاجاً علمانياً واضحاً فنسبوا للإسلام ما لم يكن فيه أصلا، وإما أن يكون هذا التأثر ببعض هذا المنهج فنرى بعضهم قد تأثر بقضايا إسلامية معينة تاريخية أو فقهية وبذلك استطاع المنهج الاستشراقي أن يجد طريقه إلى العقول المفكرة من أساتذة الجامعات، وبهذا ندرك لماذا يحرص اليهود في السيطرة على معظم أقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الأجنبية في حقول الشريعة واللغة والتاريخ وغيرها من الدراسات الشرقية، وليس من السهل على كل باحث

أن يحكم على فكر معين أو كتاب معين حكماً يضمن فيه السلامة في الرأي والصدق في الحكم إلا إذا أوتي العلم الدقيق والفكر الثاقب والبصيرة النافذة في دراسته دراسة تامة في منهجه وجزئياته فقد تكون الغاية من هذا الكتاب بضعة أسطر في منتصفه أو آخره مع ما كتبه بما يظهر عليه الثناء الصريح للإسلام.

والعجيب أننا لا نزال نجهل أو نتجاهل آثار هذا الفكر الاستشراقي على الاسلام وأهله وأن المخطط الموجه للإسلام القصد منه إضعاف أهليته في الشرق للسيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية التي تمكنوا منها في فترات تاريخية متعددة لأن الأمة التي تمتلك فكراً ذاتياً وحضارة أصيلةً لا يمكن أن تسمح لنفسها يوماً ما أن تكون تبعاً لغيرها في الفكر أو العقيدة إذا كنا نعلم أن الإسلام قد منح لأمته أصالة ذاتية لا تعتمد على غيرها في الفكر والحضارة بل إن أمماً كثيرة قد أخذت من الإسلام منهجها العلمي والحضاري تدرك جيداً القاعدة الصلبة قيادة وتشريعاً إنما يمتلكها الإسلام وحده في صفائه الفكري ووحدته وطبيعته وبتشريعه الفريد والقرآن الكريم هو المصدر الأول والينبوع العظيم للفكر والقانون.

د. عبد القهار دواد العاني

المبحث الثاني

الصراع بين الإسلام وأعدائه

لقد كان الصراع بين الإسلام وأعدائه في الغرب منذ أن كتب الله النصر للمسلمين على الروم في بلاد الشام والمغرب العربي ووصل الفتح إلى فرنسا وحدود الصين، وقد استفاد أهل البلاد المفتوحة من المسلمين في العدل بين الناس والمساواة بينهم وإغنائهم في الحقول العلمية والاجتماعية، وقد حدثت في فترات معينة هجمات عديدة كان أشدها وأطولها الحروب الصليبية، وكان أقساها وأبشعها وأخزاها ما فعله الروم بالمسلمين في الأندلس وقشتالة بصورة خاصة، مما جعل تاريخهم أسود صفحة في تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً، ولسنا نريد أن نسرد كل فضائحهم ولكن نذكر قضية واحدة فقط تتعلق بمنطقة قشتالة وليون التي أصر الصليبيون أن لا يُبْقـوا فيها مسلماً واحداً.

«وفي عام ١٥٥١ صدرت إرادة تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إما بالرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد، ثم أُمِرَ المسلمون بالتخلي عن اللغة والعبادة، وفي عهد فيليب الثالث ١٦٠٩ أُمِرَ المسلمون بالجلاء.. فهاجر منهم فريق وامتنعت طائفة بجبال البشرات ذات المعاقل الثلجية ثم انفجرت الثورة واستمرت مشتعلة سنوات، وبدأت موجة التعذيب والقتل والخيانة ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاعاً مجيداً وانتقموا من خصومهم انتقاماً بالغاً ومضى (الدون جون) ٩٧٨هـ ١٥٧٠م بحرق القرى بمن فيها، ويوقد النار على المختبئين بالكهوف والأغوار وفي سنة ١٠١٩هـ، ١٦١٠م كان قد بلغ مَنْ قُتِلَ من المسلمين وحُرِقَ ونُفي ثلاثة ملايين»[١].

---

(١) الإسلام: أنور الجندي: ص ١٩، وانظر حاضر العالم الإسلامي، تبور استوارد، ترجمة عجاج نويهض، تقديم وتعليق الأمير شكيب أرسلان، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت، التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي، أرسلان ص٢٠٨-٣٤٢. =

وقتل الراهب «ميلدا» ١٦١٠ في حركة إجلاء المسلمين عن إسبانيا مائة ألف مهاجر في قافلة واحدة مكونه من ١٤٠ألف مهاجر وبنى الفرنجة الكنيسة الجامعة في قلب مسجد قرطبة ووضعوا في المحراب صورة القديس فرديناند - في وسط دائرة من الذهب- وهو على ظهر فرسه وأمامه ملك العرب يقدم مفاتيح المدينة، وهكذا خلت الأندلس من البيرنيه إلى صخرة طارق ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة. . .

فـ «كولي» مثلاً يصف الإسلام بأنه أُسِّسَ على التعصب والقوة وأنه يسمح لأتباعه بالسلب والفجور، وأنه وعد الذين يموتون في القتال بملذات الجنة.

ويتحدث «كولي» عن الحروب الصلبية فيقول: «. . .وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما تضمنه من قوانين الأخلاق الساذجة»[١].

ولهذا (كان أمثال هؤلاء هم الذين أساءوا إلى أنفسهم وإلى المسلمين وإلى المستشرقين النزهاء حتى صار كل ما يكتبه مستشرق عن الإسلام ينظر إليه بعين الحذر والاحتراز ويبحث عما فيه من دس أو ثلب)[٢].

يقول «درمنجهايم E. Dermangham »:حين اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون، اشتد النفور بين الفريقين وأساء كل منهما إلى الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر، فعلى أثر المعارك الفكرية العنيفة التي رموا فيها الإسلام بالمساوىء من خلال جدلهم البيزنطي ودون أن يتعبوا أنفسهم في دراساتهم هبّ الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب فلم تكن مهاجمتهم إلا تُهماً باطلة بل ومتناقضة»[٣].

---

(١) انظر كتابه «البحث عن الدين الحق» طبع سنة ١٩٢٨، ونال رضا البابا ليون الثالث عشر سنة ١٨٨٧، وعاش في المدارس المسيحية بالشرق والغرب إلى اليوم، مناهج المستشرقين، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٥-١٩٨٥.

(٢) د. التهامي نقرة، مناهج المستشرقين، مكتب التربية العربية الأول، و. ط. مكتب الرياض ص ٢٣.

(٣) حياة محمد ٢١٥ (ط- باريس ١٩٢٩).

اتهام الإسلام وحضارته بالتبعية للحضارات الأخرى:

فمن الذين اندفعوا في مهاجمة الإسلام وحضارته «رينان» الفرنسي في محاضرة له في باريس (٢٩مارس ١٨٨٣) حمل فيها حملة شعواء على المدنية الإسلامية فزعم أنها ليست في الواقع إلا المدنية اليونانية أخرجت من الظلام لا على يد العربي وإنما على يد السوريين والكلدانيين والفرس والإسبانيين بعد أن أصبحوا مسلمين بالغزو واللغة[١].

---

(١) الإسلام، أنور الجندي ص١١٣.

المبحث الثالث

(الغرب والشرق الإسلامي)

العصر الذهبي في الإسلام والعصور المظلمة في أوروبا

في الوقت الذي يعيش المسلمون في بغداد وقرطبة وغيرها من عواصم الحاضرة الإسلامية في حياةٍ من العلم وازدهاره والأمن واستتبابه كان الغرب يعيش حياة من التخلف العلمي والظلام والفوضى والجهل، ولهذا نجد الكثير يريد أن يصف تلك العصور بالمظلمة دون أن يميز بين حالتين متناقضتين في الغرب والشرق الإسلامي مما جعل بعض المستشرقين يريدون أن ينسوا أو يتناسوا كل مقومات الحياة في تلك العصور، بل يريدون أن يدرسوه دراسة مقارنة «تعتبر العصور الوسطى عادة أنها عصور مظلمة وفي هذا الاعتبار تجاهل للنشاط الثقافي الجاري حينذاك في الشرق الأدنى وتأثيره على أوروبا وهو يعطي صورة مغلوطة مشوهة عن تطور الحضارة العربية. والحقيقة هي أننا لو درسنا الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى وجدنا أن تلك العصور تضاهي في إشراقها أي عصر آخر من عصور الإبداع والإنتاج في التاريخ»[(١)].

وقد ألقى «جورج سارتون» نوراً ساطعاً نفاذاً على هذه الحقبة من التطور البشري في كتابه العظيم «مقدمة لتاريخ العلم» تَتَبُّعٌ لمعرفةٍ قلّ نظيرها وإدراك نادر المثال لنمو الأفكار وتفتحٌ لأذهان البشر من الصين عبر آسيا وأوروبا إلى إيرلندا خلال ألفي سنة من التاريخ

---

(١) العالم العربي، للمؤلفة الأمريكية الجنسية العربية الأصل الدكتورة نجلاء عز الدين، ترجمة محمد عوض إبراهيم، محمد دويك، محمد يوسف نجم، برهان الدين الدجاني، تقديم وليم آرنست هوكنج، تصدير حسن جلال بوطرسي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، وسنرمز له (العالم العربي) ص ٦٢.

من هوميروس حتى آخر القرن الثالث عشر للميلاد، وفي هذا البحث الشامل نجد النتاج العقلي للحضارة العربية الإسلامية في الطليعة الأولى. وهذا البحث مقسوم إلى أنصاف قرون كل منها يحمل اسم المفكر الذي نبغ فيه في سياق تقدم الفكر. وتحمل هذه الحقبات أسماء الكثيرين من علماء العرب وفلاسفة الإسلام.

ولم تكد تمضي مائة سنةٍ على خروج العرب من صحرائهم، أي في القرن الثامن للميلاد حتى أصبح العراق مركزاً لأعظم نشاط فكري في ذلك العصر، إذ أنه بالنظر إلى ما اتصف به المجتمع العربي الجديد من قوةٍ فتية وعزمٍ متوقد تقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان وأقصاها إلى مدن العراق المنشأة حديثاً: البصرة والكوفة وبغداد، والنصف الثاني من هذا القرن هو عصر جابر بن حيان المعروف عند الأوروبيين في العصور الوسطى وهو أعظم رجال العلم في تلك العصور، ومن خلال إدخال الأساطير والخرافات التي نشأت حول شخصه وأعماله نستطيع أن نتبين عقلاً علمياً رأى أهمية التجارب العلمية بصورة أوضح مما رآها أي من قدماء الكيميائيين ودوّن آراء جد صائبة في أساليب البحث الكيميائي، وتأثير جابر واضح في جميع سياق تاريخ الكيمياء في اوروبا(١).

وقد أكد فضل المسلمين من العلماء على الغرب في نهضته الحديثة المعروفة «سارتن» وكان القرن التاسع في رأي سارتن قرناً إسلامياً بسبب التفوق العارم لمؤلفات العلماء والباحثين المسلمين على ما تنتجه الأقطار الأخرى واستمر هذا التفوق طوال القرن العاشر ولم تكن الكتب المكتوبة باللغات الأخرى، اللاتينية واليونانية والعبرية تشمل من الجديد سوى النزر اليسير، فجميع الاكتشافات الجديدة والآراء الحديثة نشرت بالعربية التي كانت (الوسيلة الدولية للتقدم العلمي)(٢).

---

(١) sarton, Introduction to the history of science 1.

(٢) Sartan O.p. Cit, P.p 543.

وهكذا صار العلم عند المسلمين مناراً يهتدى به في ظلمات القرون الوسطى التي تعيشها أوروبا، وكان علم المسلمين بالنسبة للعلم الذي سبقه كنسبة النور الساطع إلى الظلام الدامس، وهكذا استمر نشاط القرن العاشر واشتد في القرن الحادي عشر الذي بلغت فيه الحركة الفكرية ذروتها في القرون الوسطى، وكان الإسلام في طليعة الجنس البشري. إن الانتقال من الحضارات الأخرى إلى المدنية العربية الإسلامية (يكاد يشبه الانتقال من الظل إلى الشمس المشرقة ومن عالم ناعس إلى آخر متفجر بالنشاط)[١].

ويبدو أن هناك طرقاً كثيرة لنقل العلم من العالم الإسلامي إلى الغرب ومنها طريق الأندلس البلد الذي كان محل إشعاع ومدنيةٍ وتشريع للغرب مما لم يعهدوه من قبل (فمن الأندلس العربية انتشرت الثقافة الإسلامية في سائر أجزاء شبه الجزيرة الإيبيرية في أوروبا. وهاجر المتسعربون شمالاً إلى الممالك الإسبانية المسيحية حيث ضمنت لهم ثقافتهم الراقية وظائف عالية في البلاط وفي الإدارة المدنية والكنيسة[٢] لقد كان للروح العلمية والبحث العلمي المتواصل والجهد المستمر في الحقول المعرفية أثر كبير في تحريك العقلية العالمية عامة والغربية خاصة مما جعل ثمارهم العلمية ما يشهده العصرُ الحديث في حقل المعرفة والمخترعات الجديدة والتطور التقني في العالم (عندما جاءت النهضة وامتلأت روح الإنسان ثانية بالحماسة للمعرفة واندفعت بشعلة العبقرية واستطاعت أن تجد وتسرع في العمل وفي الإنتاج والاختراع كان ذلك بفضل العرب الذين حفظوا وأكملوا مختلف فروع المعرفة وأذكوا روح البحث العلمي وجعلوا تلك الروح توّاقة طيّعة ومستعدة لاكتشاف أبعد مدى)[٣].

---

(١) Sartan 1.p 695.

(٢) Miguelasini, Islam the Divine comedy 1926 p. 243 N.1

(٣) Carra deVoux: the Legacy of Islam p.379.

وقد أسهب كثير من الباحثين المستشرقين في بيان فضل الحضارة الإسلامية على الغرب والعالم فإنه بعد القرن الحادي عشر بدأ يشارك في شرف الزعامة العقلية، الفكر الذي أخَذ بالتفتح في أوروبا غير أن قادة الفكر في القرن الثاني عشر كانوا في غالبيتهم مسلمين.

أما اعتماد أوروبا على الحضارة الإسلامية فخير دليل عليه رجل يمثل أوروبا في ذلك العصر هو «جيرار الكريموني» المترجم (الذي يذكرنا بأن روح التقدم كانت تنطوي بمقدار كبير على الحكمة في جمع ثمار الحضارة الإسلامية)[١].

وقد حث كثير من علماء أوروبا طلابهم للتوجه إلى مدارس العرب للاستفادة من علومهم، كما نهلوا من علوم العرب كثيراً.

(فلقد كان «أديلارد أوف بان» من أقدم المترجمين وأعظمهم ويحتمل أن يكون تعلم العربية خلال زيارته لصقلية وسوريا وكان شديد الإعجاب بالعلوم العربية فاكتسب منها اتجاهاً عقلياً)[٢].

وتعلم «مايكل سكوت» في إسبانيا ثم دخل في خدمة فردريك الثاني ملك صقلية وترجم العلوم والفلسفة من العربية وكان أحد مؤسسي فلسفة ابن رشد اللاتينية[٣].

وكان «روجو باكون» كسلفه «أديلارد أف بان» كثير الإعجاب بالعلوم العربية وأشار على طلبته بهجر مدارس أوروبا والالتحاق بمدارس العرب[٤].

---

(١) العالم العربي - د. نجلاء عز الدين ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص٦٤.

(٣) المصدر السابق ص٦٥.

(٤) المصدر السابق ص٦٥.



الفصل الثاني

القران الكريم طبعاته وترجماته

المبحث الأول (القرآن الكريم طبعاته وترجماته)

أ- طبعاته في أوروبا:

١- أول طبعة للقرآن في نصه العربي هي تلك التي تمت في البندقية في وقت غير محدد بالدقة، ولكن المرجح هو أن تاريخها سنة ١٥٣٠م تقريباً لكن جميع النسخ التي طبعت أحرقت[١] وكانت طبعة كاملة لكل القرآن ولم يعثر لها على أثر حتى الآن وأقدم من ذكرها هو أربينوس في كتابه مبادىء اللغة.

٢- ثم طبع توما أربينوس (سورة يوسف) بنصها العربي مع ثلاثة ترجمات لاتينية وشروح. ليدن مطبعة أربينوس سنة ١٦٤٧.

٣- وطبع يوهان زيشندروف في رسالتين بدون تاريخ طبعتا في (ليدن) السورتين ١٠١و١٠٣ي الأولى، والسورتين ٦١و٧٨ في الثانية بحروف عربية منحوته في الخشب[٢].

٤- وطبع في أمستردام ١٦٤٦ كرسيتانوس رافيوس، برلين،السور الثلاث عشرة الأولى من القرآن بحروف لاتينية وفي مقابلها ترجمة لاتينية واستعمل رافيوس طريقة خاصة في رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية[٣].

---

(١) راجع أشنور تحت رقم ٣٦٧، موسوعة المستشرقين، د. بدوي ٣٠٢.

(٢) ٦١و٧٨ سورتا (الصف، النبا) ١٠١و١٠٣(القارعة، العصر).

(٣) السور (١-١٣) من سورة الفاتحة إلى سورة الرعد.

٥-وقام يوهانس جورج نسليوس بطبع السورة الرابعة عشرة والخامسة عشرة بالنص العربي والحروف العربية مع ثلاث ترجمات لاتينية وذلك في ليدن سنة ١٦٥٥في مطبعة يوانزفير وهي التي اشترت مطبعة أربينوس بحروفها العربية(١).

٦- وطبع ماتياس فردريك بكيوس السورتين ٣٠و٨٨ اعتماداً على أربعة مخطوطات عربية مع ترجمة لاتينية وتعليقات وذلك في سنة ١٦٨٨، والنص العربي بحروفها العربية(٢).

٧- أما أول طبعة للنص الكامل للقرآن وبحروف عربية وانتشرت ولا تزال توجد منها نسخ في بعض مكتبات أوروبا فهي تلك التي قام بها أبراهام هنكلمان (١٦٥٢-١٦٩٥) في مدينة هامبورج بألمانيا في مطبعة (سكلولتزويو) وفي سنة ١٦٩٤ وتقع في ٥٦٠ صفحة.

٨- وأجود منها هي التي حظيت بالشهرة والذيوع طبعة كاملة للقرآن قام بها لودو فكو مرتّشي، الراهب المنتسب إلى جمعية (رهبان أم الله) [«تعالى الله عما يقول» المؤلف] وكان معرفاً للبابا أنوست الحادي عشر وتم الطبع في مدينة بتافيا سنة ١٦٩٨ في مطبعة السيمناريين.

وقبل ذلك كان قد نشر في سنة ١٦٩١ (في مطبعة هيئة نشر الدعوة) التابعة للبابا في روما، كتاب بعنوان «الرائد إلى الرد على القرآن» في أربعة أقسام ومن قطع الثمن. وبعد ذلك أعيد طبع هذا الرائد في مطبعة باتافيا مع نص القرآن في كتاب واحد فأصبح الكتاب من قسمين: القسم الأول يشمل النص العربي للقرآن مع ترجمة لاتينية وحواشي جزئية يرد بها على مواضع من القرآن، والقسم الثاني هو« الرائد إلى الرد على القرآن».

---

(١) سورة (١٤و١٥) إبراهيم والحجرات.

(٢) ٣٠ سورة الروم و٨٨ سورة الغاشية.

٩- وفي برلين سنة ١٧٠١ نشرت مختارات من القرآن بالعربية والفارسية والتركية واللاتينية قام بنشرها أندريا أكولوتوس اللاهوتي وأستاذ اللغات الشرقية في براتسلافا وتقع في ٥٧ صفحة ويورد في العنوان أن النص العربي حقق على ثلاثين مخطوطاً ولنقتصر على ذكر الطبعات الكاملة للنص العربي للقرآن مكتفين بالإحالة فيما يتعلق بالمختارات من القرآن إلى كتاب شنور ١٨١١.

١٠- طبعة كاملة للقرآن في نصه العربي تمت في بطرسبرج سنة ١٧٨٧ في ٤٧٧ صفحة برعاية امبراطورة روسيا «كترينا» ليستفيد منها رعاياها المسلمون، وقد أشرف على الطبع ملا عثمان إسماعيل. وفي نهاية الطبعة فهارس لأجزاء القرآن الثلاثين.

١١- وطبع النص العربي للقرآن مرتين في قازان سنة ١٨٠٣ وقد أشرف على هذه الطبعة (أحقر عباد الله ... عبد العزيز توقطمش بن علي).

١٢- ويفوق تلك الطبعات جميعها كما ستصبح عمدة الطبعات الأوروبية والمراجع للباحثين جميعاً في أوروبا، الطبعة التي قام بها جوستاف فلوجل في سنة ١٨٣٤ في لبتسيك عند الناشر كارل تاوختس الشهير، وأعيد طبعها ست طبعات.

المبحث الثاني

(ترجمات القرآن الأولى إلى اللغات الأوروبية)

أ-الترجمة اللاتينية الأولى: أول وأقدم ترجمة كاملة تلك التي دعا إليها ورعاها رئيس دير كلوني وتولاها بطرس الطليطلي وهمرمن الدماشي وروبرت كينت، بمعاونة عربي مسلم يدعى «محمد» (ولايعرف له لقب ولا كنية ولا اسم آخر) وراجع الترجمة اللاتينية بيير دي بواتيه وتمت هذه الترجمة في سنة ١١٤٣ وطبعت في بازل (سويسرة) سنة ١٥٤٣ وطبعت طبعة ثانية في بازل أيضاً في سنة ١٥٥٠ والذي قام بنشر هذه الترجمة اللاتينية هو تيودور بيليناندر، وكان لاهوتياً من زيورخ (سويسرة).

ب- الترجمة الإيطالية الأولى: ففي هذه الترجمة، لا عن الأصل العربي للقرآن كما زعم المترجم كذباً، قام أرينا بيني في سنة ١٥٤٧ بترجمة القرآن إلى الإيطالية وتقع هذه الترجمة الإيطالية في (١٥٠) ورقة من قطع الربع.

ج- الترجمة الألمانية الأولى: وعن هذه الترجمة الإيطالية تمت الترجمة الألمانية التي قام بها ألومون اشفجر، في سنة ١٦١٦ وطبعة ثانية في نورنبرغ سنة ١٦٢٣.

د- الترجمة الهولندية: وعن هذه الترجمة الألمانية تمت ترجمة القرآن إلى اللغة الهولندية سنة ١٦٤١.

هـ- الترجمة الفرنسية: أول ترجمة للقرآن إلى الفرنسية هي التي قام بها دي ربير عام ١٦٤٧ وقد ترجمت هذه إلى لغات أخرى: ١-الإنجليزية ٢- الهولندية ٣- ومن الهولندية ترجمت إلى الألمانية، أما ثاني ترجمة فرنسية فتمت بعد ١٣٦سنة إذ ظهرت في باريس سنة ١٧٨٣ وقام بها سافاري.

و- الترجمة الإنجليزية: وأقدم ترجمة للإنجليزية من العربية مباشرة هي تلك التي قام بها جورج سيل وظهرت في لندن سنة ١٧٣٤ وحظيت بانتشار واسع منذ ظهورها حتى اليوم وأعيد طبعها باستمرار وطبعت طبعة ثانية في لندن سنة ١٧٦٤ في مجلدين، وعن هذه الترجمة الإنجليزية تمت الترجمة إلى الألمانية وقام بذلك، تيودور أرنولد.

ز- الترجمة الألمانية: وأقدم ترجمة ألمانية عن النص العربي مباشرة هي ترجمة دافيد فريدرش ميجرلين الأستاذ في جامعة فرانكفورت، وظهرت سنة ١٧٧٢ وترجمة العنوان: الكتاب المقدس التركي (الإسلامي) أو القرآن الترجمة الألمانية الأولى عن الأصل العربي نفسه مع بيان ضرورته وفائدته عمل دافيد فريدرش ميجرلين الأستاذ بفرانكفورت في ألمانية سنة ١٧٧٢ ويقع في ٨٧٦ صفحة في قطع الثمن وهذه الترجمة هي التي قرأها «جوته» ومنها بدأ إعجابه واهتمامه بالإسلام وفي السنة التالية أي: سنة ١٧٧٣ ظهرت ترجمة ألمانية أخرى عن الأصل العربي مباشرة كما يرد في العنوان وقد قام بها فريدرش أبرهود يويزن وترجمة العنوان «القرآن أو التشريع عند المسلمين لمحمد بن عبد الله مع بعض الدعوات والصلوات القرآنية الاحتفالية» ترجمة عن العربية مباشرة وبناء على رغبة فريدرش أبرهود يويزن / هلّه سنة ١٧٧٣ ويقع في ٦٨٠ صفحة من قطع الثمن وطبع طبعة ثانية مصححة في هلّه سنة ١٧٧٥[1].

---

(١) بدوي ص ٣٠٥.

المبحث الثالث

فهارس القرآن

أقدم فهرس مطبوع للقرآن هو «نجوم الفرقان» تصنيف مصطفى بن محمد، طبع في كلكتا سنة ١٨١١ في حجم الربع في ٣١٣صفحة، وله مقدمة بالفارسية وقد أعيد طبعُهُ في مدراس (الهند) في سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) في حجم الثمن في ٢٦٤ صفحة طبع حجر، مع ترجمة عربية للمقدمة الفارسية ومعجم معان عربي - هندوستاني وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات، أما أول فهرس عمل في أوروبا فهو الذي عمله جوستاف فلوجل بعنوان عربي «نجوم الفرقان» وأعيد طبعه في لبتسيك سنة ١٨٩٨ عند الناشر، وقام ميرزا محمد كاظم بك بعمل فهرس شامل للقرآن تحت عنوان عربي «مفتاح كنوز القرآن» وكما ورد تحت العنوان فإنه «فهرس كامل للقرآن، يحتوي على كل الألفاظ وعبارات النصوص التي ترشد المستشرقين في أبحاثهم عن الدين والتشريع والتاريخ والأدب الموجود بهذا الكتاب «القرآن» مرتبة بحسب ترتيب حروف الهجاء العربية ويحتوي على المفاتيح أو الكلمات المرادة في القرآن مع الاستشهاد بكل المواضع التي استعملت فيها والضرورية في الأبحاث العلمية». وطبع فهرس في سان بطرسبرج في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم في سنة ١٨٥٩ ويقع في ٣٤٣ ورقة وميرزا كاظم بك(١) كان أستاذاً في جامعة في سان بطرسبرج. وهو مطبوع طبع حجر وله مقدمة بالفارسية في ١٠ صفحات. ولنذكر أيضاً أنه قد طبع في استانبول سنة ١٢٨٤هـ(١٨٦٧، ١٨٦٨م) فهرس آخر للقرآن بعنوان «ترتيب زيبا» وفي آخر رسالة تبين السور المكية والسور المدنية وعدد الآيات والكلمات والحروف في القرآن.

---

(١) بدوي ص ٣٠٥.

ب-طبع القرآن الكريم في البلاد الإسلامية[1] :

لقد أردت أن أتحدث عن طبع القرآن الكريم في البلاد الإسلامية قبل أن نعرف طبعه في البلاد الأوروبية والأجنبية ولكن البلاد الأجنبية سبقت البلاد الإسلامية مما جعل الأمر على ما أثبتناه.

١- كلكتا سنة ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) في ٧٢٤ صفحة في قطع الثمن.

٢- بومباي سنة ١٨٥٣م (١٢٦٩هـ) في ٢٤٦ صفحة من قطع الربع طبع حجر.

٣- بومباي سنة ١٨٦٥م في ٢٢٢ ورقة طبع حجر.

٤- باريلي سنة ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ).

٥- بومباي سنة ١٨٦٧م(١٢٨٣هـ) وفي ١٩٠ صفحة من قطع الربع، طبع حجر.

٦- القاهرة سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩- ١٨٧٠م) في قطع الثمن.

٧- بومباي سنة ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) في ٣٥٥ صفحة من القطع.

٨- استانبول سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧٢) طبعة بالزنكغراف مصورة عن نسخة مكتوبة في سنة١٠٩٤هـ بخط الخطاط الشهير حافظ عثمان عن نسخة نور الدين علي القارىء، وهذه الطبعة عليها شهادة سبعة من القراء الشاهدين على صحة النسخة وعلى الخلافات الموجودة بين الكوفيين والبصريين فيما يتعلق بعدد الآيات وقد أعيد طبعها برعاية عثمان بك الأمين الثاني للسلطان العثماني وذلك في ١٢٩٧هـ (١٨٨٠)في استانبول.

ومن خلال المقارنه تبين أن الأوروبيين طبعوا القرآن الكريم قبل المسلمين بثلاثة قرون على ما أورده صاحب الموسوعة، و لعلي أجد ما يدل على خلاف ذلك.

---

(١) بدوي ص ٣٠٥.



الفصل الثالث

تاريخ الاستشراق وآثاره وأهدافه وعلاقته بالتبشير والاستعمار

المبحث الأول أهداف التبشير

من العسير حقاً على باحث أن يفصل العمل الاستشراقي عن الهدف الديني التنصيري في جملة دراسة المستشرقين عن الإسلام، وإذا كان بعضهم يجهر بهذا الهدف بشكل واضح في كل مناسبة تقتضي ذلك فإن فئة أخرى منهم تجنح إلى أسلوب الدَّسِّ الخفيِّ وإخفاء الحقائق وإبراز الشبهات وبتر النصوص وإثارة الشكوك في كل ما يتعلق بالدراسات عن الإسلام (عقيدته وأحكامه وتاريخه ورجاله).

وإن دراسة المستشرقين للإسلام قامت من أول الأمر بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه حِرْصاً على مذهب الكَثْلَكة من جانب وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس من جانبٍ آخر. ولقد كان التبشير والاستشراق الطلائع الاستعمارية لغزو المسلمين والسيطرة على بلادهم...

أهداف التبشير والاستشراق: إن لنتيجة إرساليات التبشير وجهود الاستشراق في البلاد الإسلامية مزيتين:

أ- مزية تشييد.

ب- مزية هدم (أو مزيتي التحليل والتركيب).

لقد عمل التبشير على محاربة الإسلام ودعوته والقضاء على الحركات الإسلامية باعتباره (أي التبشير) أداة من أدوات الاستعمار، فهو يعمل على إظهار الغرب المسيحي بمظهر المحبة والسلام والعلم والنور واتهام الإسلام وتاريخه بأنه العدواة والظلام والجهل، وهذا هو ما هَدفَ إليه الاستشراق في شتى مراحله.

عمل التبشير والاستشراق بكل جد في القضاء على وحدة المسلمين ولهذا نجدهما يشيدان بإسهاب الخصومات ويشيدان النظريات العنصرية والطائفية في الشرق الإسلامي ويحييان اللغات الميتة للأقوام البائدة،لتنشأ في العالم الإسلامي طوائف متناحرة متخاصمة ليصفو له الجو ويهيمن على العالم الإسلامي هيمنة لا يستطيع أي بلد إسلامي أن يدفع عن نفسه غائلة الاستعمار وقيوده إلا بعد جهاد طويل. وإن أكبر دليل على ما ذُكِر أن الدول الأجنبية الاستعمارية كانت وما تزال ترتبطُ بها مراكزُ التبشير وتأتمر بأمرها وتنسق بين الدوائر الدبلوماسية الغربية وبين المنظمات والمؤسسات التبشيرية في تلك البلدان،لقد عُرِفَ المستشرقون والمبشرون بالعمالة للاستعمار وهم الذين يعملون جنباً إلى جنب في تحقيق أهداف الاستعمار من التشكيك بالإسلام وفكره وغرس الفكر الغربي في النفوس.

السياسة التوجيهية العامة للتبشير والاستشراق: إن مجال نشاط المبشرين والمستشرقين يبلغ المدى البعيد بين صفوف رجال التوجيه في بلدان الشرق، ولهم في ذلك وسائلهم الخاصة في تفريق شمل المسلمين وإضعاف شوكتهم والعمل على الغض من اللغة العربية وأهم وسائلهم تتم بصورتين:

أ- استخدام تلاميذ المستشرقين والمبشرين (عملاء الاستعمار) من الوطنيين الذين درسوا بجامعاتهم وتَشَرَّبوا بمبادئهم وهؤلاء - وقد أصبحوا قادةَ الفكر والسياسة في الشرق- إنما ينفذون سياسة المستعمر بقصد أو بغير قصد منهم وبإيحاء من توجيهات المستشرقين والمبشرين.

ب- كتابة بعض الغربيين مؤلفات عن الثقافة الإسلامية، وعمل موازنات بينها وبين الثقافة الغربية (النصرانية)، ثم العمل على تشويه الحقائق، وذلك بإبراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات والثغرات بين الطوائف والشعوب الإسلامية من الجهة الشعوبية، أو الجغرافية، أو نظام الحكم.

شكا المبشرون في عدد من المؤتمرات التبشيرية من إخفاقهم في تحويل المسلمين إلى النصرانية وقالوا: إنه لا يستجيب أحد من المسلمين للتبشير إلا أحد اثنين: طفل مخطوف من أهله وهو صغير فَيُرَبَّى على النصرانية وهو جاهل بأصل عقيدته، أو رجل معدم لا يجد سبيلاً للعيش إلا الدخول في النصرانية ليحصل على لقمة الخبز ويظل من المشكوك فيه أنه غَيَّرَ عقيدته حقيقة.

فلما بدا واضحاً أن الغربيين الحاقدين - من مبشرين ومستشرقين وغيرهم، أدركوا إخفاقهم في تحويل المسلمين إلى نصارى - لجؤوا إلى خطتهم الرامية إلى تشويه المفاهيم الإسلامية بكل وسيلة وركزوا اهتمامهم على تلوين المسلمين بالنصرانية والمفاهيم الغربية والمادية تلويناً يبعدهم عن عقيدتهم الإسلامية، ثم يدنيهم - فِكْراً وخُلُقاً وولاءً وشعوراً من الغربة[1].

---

(١) التبشير: أحمد خليل، مصر، وانظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ والخالدي.

المبحث الثاني

بعض ما قالوه عن الإسلام[١]

«إن الإسلام هو الذي وضعه محمد- تأثر فيه بالتعاليم الدينية السابقة عليه كتعاليم- اليهودية والمسيحية،وهو حين اقتبس من تعاليم هاتين الديانتين حرّف ما اقتبسه نتيجة لتأثره بعوامل شخصية وبشرية، ولذا نجده مثلاً ينكر ألوهية المسيحية، والإسلام بعد ذلك دينٌ فردي شخصي لا يصح أن يتدخل في حياة الأفراد وعلاقاتهم - ولذا يجب فصله عن المجتمع والدولة، والإسلام نفسه يخضع لعوامل الزمن والتطور الاجتماعي فلا بد من تطويره تبعاً لتطورها- فهو موقوتٌ (بمبادئه وأحكامه) بهذا التطور»[٢].

فهذا (كولد تسيهر) يقول: «إن الإسلام يكره التجديد، وكل بدعة في نظر الجماعة الإسلامية هي موضعٌ للشكِّ أو الشبهة وظهورها مَدْعاةٌ للأسى إذ أنها تهدر وحدة الجماعة وتؤدي إلى انهيار الشريعة».

ويقول أيضاً: « وما من أحد كان يرغب في إسراع الخطى خشية أن يُتَّهم بالزيغ والمروق».

«الإسلام مزيج مشوه مُسْتقى من أصول المسيحية واليهودية تلقاها الرسولُ من أساتذته أحبار اليهود ورهبان النصارى وقسسهم ».

وصَوَّر الإسلام أيضاً في صورة زندقة - بل ومنبع الزندقات - والإسلام على رأي بعضهم - فرقة منشقة عن الكنيسة»[٣].

---

(١) عبد الجليل شلبي: الحضارة الإسلامية ص ٤٨، وانظر مناهج المستشرقين، ج٢، د. مصطفى الشكعة ٣٠٩ - ٣٧٧.

(٢) عبد الجليل شلبي: الحضارة الإسلامية ص ٤٨، وانظر مناهج المستشرقين، ج٢د.المصطفى الشكعة ٣٠٩-٣٧٧.

(٣) المستشرقون والإسلام، د.عرفان ص٩-١٠.

«إن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف».

يقول تايلور «الإسلام يهودية مهذبة » وقال جيوم: «إن محمداً كان تلميذا مبتدئاً في دراسة التلمود ولم يستطع فهمه جيداً» وقيل: «ليس في الإسلام مايسمى بالتصوف».

يقول كولد تسيهر في معرض آخر: «كان العرب في هذا العهد من تاريخهم لا يبالون بنشر الإسلام بين رعاياهم بل كادوا يقاومون حركة هذا التحول إلى الدين الجديد، ومع ذلك فإنهم تحت تأثير الثقافة الإسلامية بدأت أفكارهم تتجه نحو الفتح الرومي- وأخذ الإسلام ينتشر بخطوات حثيثة إلى الحد الذي أثار قلق الخلفاء فعملوا على تبطيء هذا التحول إلى الإسلام خشية أن يؤدي ذلك إلى إغراق العربي المخلص في هذا الخضم من الشعوب الأعجمية. ليس في الإسلام نظم وقوانين منظمة وجيدة ولذلك فإن المسلمين انتحلوا من البلاد التي فتحوها نظماً قضائية وإدارية، وإن هذه النظم مستمد من نظم شتى هي القانون الروماني والفارسي والتلمود وقانون (الكنائس الشرقية).

إن الإسلام لا يساير التقدم العلمي والتكنولوجي وبعيد عن التطور والتجديد فهو رجعي، وهذا أحد أركان النهضة الأوروبية يقول عن الإسلام: (إن الإسلام مزيج مشوه مستقى من مصادر مسيحية. . . وإن الإسلام انتشر بحد السيف وشيوعية المرأة) وإن الإسلام يشجع الخرافيات والسحر وما تأريخه وعقائده إلا مواد أسطورية مصطنعة. هذا غيض من فيض مما قيل عن الإسلام.

السيف والإسلام

لم يجد المستشرقون ما يقولونه حول المعجزة الربانية في انتشار الإسلام في فترة وجيزة لم يشهدها ولن يشهدها تاريخُ البشرية إلا أنْ يقولوا (إن الإسلام انتشر بالسيف) ويكفي تكذيب هؤلاء - تعريف الإسلام - نفسه شرعاً؛ إذ أنه (الانقياد والخضوع لأوامر الله واجتناب نواهيه عن رضى واختيار) فشرطُ الإسلام الذي لا يَصحُّ إلا به (الرضى) فكيف يجتمع «إكراهٌ» مع«الرضى» ومع هذا فإننا نُوردُ إضافةً إلى ما قدمناه ما يُفَنِّدُ مزاعمهم بأدلةٍ من القرآن والسنة والتاريخ:

من القرآن نختار الآيات التالية:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله تعالى راداً على مذهب أهل الكفر في إكراه الناس على كفرهم وصلفهم على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

و﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

و﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

و﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

و﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦].

وقوله تعالى مبيناً همة الرسول ﷺ في تبليغ دعوة الله تعالى وعدم إكراه الناس عليها:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

و﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩].

ومن السنة النبوية نختار مايلي: «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة» والرحمة والهداية ليس من لوزامهما- الإكراه والعنت وإنما الرضى والخير والبركة.

وقوله ﷺ «مَنْ آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة» وجادل رسول الله ﷺ أهلَ الكتاب وباهلهم بعد الحجة - فقال تعالى حاكياً حال رسول الله ﷺ حين باهل أهل الكتاب من اليهود: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال تعالى حاكياً حاله وهو يجادلُ أهل الكتاب في عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩].

ومن كتب التاريخ نأخذ هذه المقتطفات- فقد أوردت كتب الاحتساب أحكاماً تخصهم وإن النص التالي يَردُّ على مَن ادَّعى انتشارَ الإسلام بالسيف والإكراه:

قال صاحب كتاب «معالم القُرْبة في أحكام الحسبة» في معرض كتابته عن الحسبة على أهل الذمة: «وإن أسلم منهم صبي مميز أتى بالشهادتين لم يصحَّ إسلامهُ للخبر المشهور لأنه غير مكلف فلا يصح إسلامه كالمجنون، فعلى هذا يُحَالُ بينه وبينهم فإن بلغ ووصف الكفر هُدِّد وضرب فإن أصرَّ على الكفر رُدَّ إلى أهله. وقيل: يصح إسلامه في الظاهر دون الباطن، فعلى هذا لو بلغ ووصف الإسلام حُكِمَ بإسلامه من حين أتى بالشهادتين وإن وصف الكفر ولم يصف الإسلام لم يحكم بإسلامه لأنه لا يوثق منه بما كان منه في الصغر إلا بما ينضاف إليه البلوغ. فالمتأمل لهذا النص على الرأيين يدرك كذب دعواهم بإكراه الناس على الإسلام فإنْ كان إسلامُ صبي من اليهود والنصارى وهو مُمَيِّزٌ لا يُقبَلُ إلا بعد تمحيص رضاه بعد تَعَقُّلِه وفَهْمِه للإسلام وإلا رد إلىَ أهل دينه.

إذاً من خلال تتبعنا لدراسات المستشرقين ومؤتمراتهم حول الإسلام نجد أنهم ينشئون فكراً معقداً مضطرباً متناقضاً عن الإسلام. . .

وهكذا نجد هؤلاء المستشرقين ووفق مخطط استعماري وغزو فكري يتسابق وبصورة عشوائية لإعطاء صورة مشوهة عن الإسلام - مخافة أن يطلع العالم الغربي والشرقي على مفترياتهم، وساعد على ذلك الخمول الفكري والانعزال الجامد عند المسلمين في بيان الإسلام على حقيقته سواء في عالم الغرب أو الشرق أو في عالم المسلمين مما سنبيِّنهُ في فصل خاص إن شاء الله.

وبهذه الطريقة الحاقدة المشوهة يمكن أن يجندوا الغرب كله مفكريهم وعامتهم لاستعمار البلاد الإسلامية واللعب بمقدراتها وممتلكاتها. . .

نترك بحوثهم عن الإسلام لنتكلم ولو باختصار عن افتراءاتهم وأكاذيبهم عن الرسول الكريم محمد ﷺ.

بعض ما قالوه عن الرسول الكريم محمد ﷺ[١]:

(محمد مصلح ديني وضع نظاماً جديداً دينياً أسماه (الإسلام) وأولى بهذا النظام أن يسمى بالمذهب المحمدي، ومحمد في الوقت نفسه إنسان عادي.

أما دانتي (الشاعر الإيطالي المشهور) فقد صور الرسول ﷺ وقد ألقي في الدرك الثامن والعشرين من جهنم وقد شطر إلى نصفين من رأسه إلى منتصفه وصوره وهو يتيه في جسمه عقاباً له على ما اقترف من فضائح وآثام، وسَبَّبَ من شقاق، ولأنه في رأيه تجسيد كامل للروح الشريرة).

ويصف أحدُ نماذجِ حركةِ التنوير رسولنَا الكريم بما يلي: (إن محمداً رمز الفتن، وهو دجال -ويدعي كذباً المناجاة مع روح القدس..

وهذا (ديدرو) الذي وهو أيضاً من رجال التنوير الفرنسي يصف الرسول -بأنه (قاتلُ رجال وخاطف نساء وأكبر عدو للعقل الحر).

ومن أركان النهضة الأوروبية يقول أحد أعضائهم عن الرسول ﷺ: (إن محمداً كان مصاباً بالصرع) وقيل: (إن محمداً يدعي النبوة وهو ليس بنبي؛ بل إن معلوماته استقاها من مصادر معروفة منها صاحباه صهيب الرومي وسلمان الفارسي وزوجه مارية القبطية...)... (إن محمداً كان يقرأ ويكتب،أي إنه لم يكن أمياً بدليل أنه كان تاجراً) ثم: (إنه محمداً كان شديد الإخلاص لدعوته وشديد الثقة في نفسه فكان إذا حدثت حادثة في حياته أو اعتقد أن شيئاً ما صالح انفعلت نفسه بما حدث أو اعتقده صاغه في كلام قرآني، ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أُوحي إليه فيقدمه للناس على أنه كلام الله) ثم قيل: (إن معارضة العرب لمحمد ﷺ وتكذيبه دليل على بطلان دعوته).

---

(١) المستشرقون والإسلام، د. عرفان عبد الحميد ص٦،وات W. Montagemey وانظر منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ.

يقول ثوراندارية: (لا يعرف بالضبط متى ولد محمد وأكثر ما جاءنا عن حياته الأولى معلومات أسطورية).

ويقول برنارد لويس: (لا يُعْرَفُ إلا القليلُ عن نسب محمد وأوائل حياته؛ بل إن هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً كلما تقدم البحث الأوروبي... وأثار شبهة أخرى حول ما تحويه الأخبار الإسلامية- وتاريخه).

ويقول نيكلسون: (إن الحقيقة المجردة هي أن محمداً قبل نبوته كان قريشياً مغموراً، وكل ما روي عن حياته التي سبقت نبوته لايمكن اعتباره حوادث تأريخية واقعة سوى زواجه من خديجة).

ويقول بروكلمان: (لسنا نعلم علم اليقين السنة التي ولد فيها النبي والمشهور أن ولادته كانت سنة ٥٧٠م، ولكن الذي لا نشك فيه أنها متأخرة عن ذلك بعض الشيء...).

فهذه أمثلة مما لا حصر فيه من المغالطة والكذب والافتراء على أعظم إنسان عرفته البشرية، وكيف لا وهو الذي رعاه الله وأوكل تربيته وحفظه إلى ملائكته المقربين حتى وصل من الخلق الرفيع إلى أن يُقالَ فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].. فهو الكامل خُلقاً وخَلقاً، ولضيق المجال نأخذ بعض الفقرات للمناقشة لأن كذب البعض الآخر أظهرُ وأوضح من نور الشمس عند مَنْ كان عنده قليلٌ من المعرفة ومسكة من العقل...

ونأخذ على سبيل المثال- اتهامهم للرسول ﷺ بأنه أخذ دينه عن صهيب الرومي وسلمان الفارسي ومارية القبطية، فمن جهلهم لمسائل التاريخ أنهم لم يعلموا أن صهيباً رضي الله عنه عربي الأصل، فهو من بني النمر بن تولب سَبَتْهُ الرومُ طفلاً وباعته ونشأ بمكة ويقال إنه عتيق عبد الله بن جدعان فماذا عسى أنْ تكون ثقافةُ طفلٍ أو صبي حتى يستفيد منه محمد وهو لم يذهب إلى بلاد الروم ولم تكن الدولة البيزنطية دولة توفر العلم حتى يفيض على الصبيان، ويقال: إن صهيباً هذا نشأ في العراق.

ثم لماذا أن كل ما جاء في كتبهم الدينية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام صحيحة بعيدة عن الخطأ إلا أن حياة النبي محمد ﷺ مجهولة ومبهمة لهم، علماً أن الله عز وجل الذي نزل القرآن وتعهَّد بحفظه هو الذي رعى حياة حبيبه ورباه.

أنكر بعض المستشرقين أمية الرسول ﷺ[1] وأرادوا أن يثبتوا أنه كان يقرأ ويكتب بدليل كونه تاجراً، فمن مستلزمات التجارة القراءة والكتابة لتسجيل الحسابات، ونحن نرد عليهم رداً واقعياً يخزيهم.

إننا الآن في القرن العشرين نعرف تجاراً كباراً في السوق لا يعرفون الكتابة والقراءة ولهم من المحاسبين والإداريين مَنْ يُصَرِّفُ لهم شؤون تجارتهم، والحقيقة أن الأدلة النقلية من القرآن والسنة والتاريخ الصحيح تدل على أمية الرسول ﷺ.

فمن القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومن السنة: نحن أمةٌ أمية لا تقرأُ ولا تكتب...

ومن كتب التاريخ المعتمدة: (وحين تجمعت قريش لغزوة أُحد أرسل العباس بن عبد المطلب كتاباً سرياً يخبر به رسولَ الله بهذا التجمع، فدفع النبيُّ الخطابَ إلى أُبي، فلما قرأه وعلم النبي بهذا الخطر الذي سيواجه المسلمين استكتمَ أبياً ما قرأ، ولو كان هو يحسن القراءة لأبقى هذا السر وما احتاج أن يستكتمه مَنْ قرأه (لأن هذا سر عسكري خطر كما نسميه في اصطلاحنا المعاصر).

---

(١) لقد ردد هذا القول أستاذ التاريخ في جامعة بغداد في الستينات لأنه يؤمن بالفلسفة المادية.

وحين كتبت ثقيف شروط إسلامها للنبي أجازت فيها الربا والزنا فلما قُرِىءَ الخطابُ على رسول الله ﷺ قال للقارىء وهو يقرأ كلمة الربا، لتضع يدي عليها فوضع يده فمحاها وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البقرة: ٢٧٨] ولما بلغ كلمة الزنا قال: ضع يدي عليها فمحاها أيضاً وقرأ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

إذ إن معارضة العرب للرسول تعتبر دليلاً عليهم لا لهم، فتكذيب المشركين للرسول عند المستشرقين يعني بطلان رسالة النبي ﷺ ولكن تكذيب مشركي اليهود للنبي موسى ماذا يعني؟ وتكذيب مشركي المسيحية للمسيح ماذا يعني؟ بل إن اليهود أنفسهم ذاق منهم موسى عليه الصلاة والسلام الأمَرَّين فعبدوا العجل، وأرادوا رؤية الله عز وجل وغير ذلك- ووقف اليهود بل كهنتهم في كتابهم «الموقف العدائي من عيسى عليه الصلاة والسلام» وأرادوا قتله بل نفذوا القتل حيث جعل الله رجلاً شبيهاً به ومع هذا فهم قد أصروا على قتله، فهل كان أولئك الأنبياء كلهم لا كرامة لهم؟ ذلك ما تُظْهِرُه ألسنتهم وما تخفي صدورهم أكبر، وهل يتوقع من العرب المشركين الذين سفهت أحلامهم وكشفت قلة عقولهم في عبادة الأصنام والدعاء لها وتصور النفع والضرر منها، فمن البديهي أن يلقى كل داعية إلى دين جديد أو مذهب جديد في قوم لم يعرفوا ذلك من قبل الصَدَّ والأذى- إلا أن هؤلاء في ضلالاتهم إنما يصورون حقدهم وحسدهم وجهلهم في هذا الواقع المتدني من الافتراءات والأكاذيب اتباعاً للهوى وإطفاء للحقد ولكن مثلهم كما يقول الشاعر:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله

النـــار تأكـل نفسهـــا إن لـم تجـد ما تأكلـه

وفي الخاتمة لمناقشة افتراءاتهم وأخطائهم بصدد الرسول ﷺ.

نـأتـي إلـى منـاقشـة رأي المستشـرق الإنجليـزي W.Montagemry [1] وحسـب الأسلوب التالي:

الإخلاص للدعوة والثقة بالنفس. هاتان خصلتان تدلان على الصدق تثبتان أن ما قاله الرسول ﷺ حق وصدق إذ إن الإنسان إما أن يكون ربانياً في دعوته يبتغي بها وجه الله تعالى أو أن يكون ذا طمع دنيوي في منصب أو جاه أو مال أو غيرها من متع الدنيا التي وصفها الله في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] فإن كان ربانياً أخلص لدعوته ووثق بنفسه، وإن كان من أهل الدنيا ومغانمها استخدمها من أجل غاياته وأهدافه الدنيوية وانكشف أمره -لا بد في فترة من فترات حياته- فإخلاص رسول الله ﷺ لدعوته دليل على أنه رسول ونبي مرسل من عند الله تعالى، وأن القرآن كتاب موحى منه تعالى -وأما الثقة بالنفس فهي صفة ملازمة لأهل الحق دائماً - فإنما الضعيف هو صاحب النفس الذي يدعو إلى الباطل وتداهن نفسه الأعداء في عقيدتها وفكرها. . . وأكبر دليل على هذا ما يفعله أهل الباطل من أصحاب الفكر الصليبي أو الفكر الإلحادي المادي حين يُخْفون موقفهم من الإسلام ويداهنون فيه بغية إرضاء الشعوب الإسلامية للسيطرة عليها ونهب خيراتها والقضاء على إيمانها وعقيدتها تدريجياً وتنفيذاً لوصية كبار المفكرين منهم من أمثال كلادستون الذي وقف في مجلس العموم البريطاني رافعا المصحف بحقد وحمق قائلاً: «ما دام هذا المصحف فيهم فلا قرار لنا عندهم، فلا بد من القضاء عليه أو قطع صلتهم به». ولما كان الأمر الأول مستحيلاً شرعاً وعقلاً، فإن الأمر الثاني هو الذي خططوا له ونجحوا فيه نجاحا عظيماً، إذ نرى في زماننا هذا ملايين من المسلمين ممن يدينُ بالفكر الإلحادي والعلماني ويحارب الإسلام وأهله ويدين لأهل الكفر من حيث يعلم أنه قد ارتد بذلك عن دينه أو لا يدري،

---

(١) انظر مناهج المستشرقين، ج١، د. محمد بن عبود.

وتلك هي المصيبة العظمى حيث يتصور الجمع بين الأمرين من غير أن يكون ذلك سبباً في نقص دينه أو ضياعه... إن الاستعمار أدرك بأن سيرة سيدنا محمد ﷺ هي مدرسة حَرِيَّةٌ بأن تدرس، وهي كفيلة بتربية أجيال مؤمنة صادقة صالحة - لذلك يحاولون عبثاً إسدال الستار على حياته وأخلاقه الكريمة - لأنها نور يضيء ظلام شرهم وانحرافهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

(إن قرآن محمد صنعة بشرية يكثر فيها التناقض وعدم الانسجام) و(القرآن مخلوق) يقول أحد رواد حركة التنوير: (إن محمداً يزعم أنه صاحب رسالة- إن كل سطر في رسالته ينم عن السخف الذي يناقض مبادىء العقل الأولى...) ويقول كولدتسيهر في معرض كلامه عن الوحي: (إن الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم والتي يشتقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة كما يجدون فيها قوة تهدم جميع العقبات ومن ذلك حمية النبي أو الحواري...)[١].

ويقول بروكلمان: (أعلن - أي الرسول ﷺ ما أصابه أنه قد سمعه كوحي من الله...) ونعود إلى ما ذكرناه قبل قليل من قولهW.Montagemory الآتي (... فكان إذا حدثت حادثة في حياته أو اعتقد أن شيئاً ما صالح انفعلت نفسه: أحدث أو اعتقد فيصوغه في كلام قرآني ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أُوحي إليه فيقدمه للناس على أنه كلام الله).

اهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوحي مقتفين أثر جهلاء قريش وسفهاء المشركين في ادعاءاتهم المُلَفَّقة الكاذبة حول الرسول الأعظم ﷺ حين قالوا عنه إنه ساحر أو مجنون أوشاعر.

---

(١) المستشرقون والإسلام، د.عرفان عبد الحميد ١٦-٢٠.

أما سبب هذا الاهتمام الكثير فيعود إلى الأسباب التالية:

١- لما يتمتع به القرآن من مركز ديني وثقافي في الإسلام، فهو ويُعَدُّ الأساسَ الأول الذي تقوم عليه العقيدة والثقافة الإسلامية كما أنه المصدر الأول للنظام والشريعة الإسلامية.

٢- النظرة التقديسية التي ينظر بها الفرد المسلم إليه. ثم إن القرآن وظاهرة الوحي من أظهر وأقوى الأدلة على صدق محمد ﷺ على أساس ما فيها من أفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدةَ عصرِ البعثة ولا من خلق شخص محمد - الأمر الذي أدركه المستشرقون بشكل واضح ودعاهم إلى مهاجمة القرآن وظاهرة الوحي... ثم للرد على شبهاتهم الواهية نذكر الآية الكريمة المبينة لأنواع الوحي: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١] ثم إن الوحي ليس من قبيل الحَدْس أو الشعور الباطني ودلالات النفس والفراسة السريعة التي غالباً ما تتأثر بالرياضات الروحية والتفكير المستديم الطويل - بل إنه أمرٌ طارىء زائد على الطباع البشرية خارجي عن النفس والباطن لايخضع لأي تأثير يطرأ عليهما يتلقاه النبي ﷺ من الذات الإلهية بواسطة الملك الموكل بذلك.

لضيق المجال نأخذ فقرتين من المذكورات سابقاً للمناقشة.

خلق القرآن: إن هذا الرأي هو رأي المعتزلة، وقول جمهور المسلمين أن القرآن كلام الله تعالى، والكلام صفة المتكلم فهو قديم قدم الباري عز وجل، ولقد دفع المستشرقين جهلُهم بهذا الموضوع إلى أن يتصوروا أن المقصود برأي المعتزلة (إن القرآن ليس من الله تعالى، بل هو من عند رسول الله ﷺ، ومن علمه الذاتي وسماعه، وتعلمه من الغير، وليس وحياً من الله تعالى منزلاً على رسول الله ﷺ، مع أنَّ المقصودَ بأنه مخلوق أي خلقه الله تعالى كما خلق الكون كله وكل المسلمين ومنهم المعتزلة يقرون بأن القرآن كتاب تَنَزَّل وحياً من عند الله تعالى على النبي ﷺ وأنه المعجز وأنه المنقول بالتواتر المُتَعَبَّدُ بتلاوته، وأنه القرآن الذي بين أيدينا لم يزد فيه ولم ينقص منه والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والعالم الحافظ الأمين المُتَثَبِّتُ هو من يتصدى للحقيقة الكبرى ويطلبها ويتبيّن معالمها بكل أمانة وصدق. الحقيقة - أن القرآن من الله تعالى وأن الله يتحدى به البشر جميعاً عربهم- وهم أهل اللغة - وأعاجمهم، أنْ يأتوا بسورة من مثله، وقد عجز العرب وعجز غيرهم من باب أولى، ومع هذا فلا يزال هذا النور يهتدي به أهل العقل والفكر واليقين والصدق عن رضا واقتناع وفداء في سبيل هذا الدين الذين آمنوا به...).

(فيصوغه في كلام قرآني) هذا قولٌ يدل على عدم المعرفة بالوحي القرآني إذ إن كلام رسول الله ﷺ غير كلام الله تعالى يُمَيِّزُهُ مَنْ له أدنى معرفةٍ بالقرآن واللغة العربية ليس هذا فحسب؛ بل إن كلام رسول الله رغم أنه وحي من الله تعالى بأسلوبه ﷺ من غير إعجاز فإن أقوال الرسول ﷺ نوعان:

حديث قدسي وأحاديث غير قدسية، فالحديث القدسي هو وحي من الله تعالى - من كلامه من غير إعجاز وهذا ما يميزه عن القرآن حيث إن القرآن كلام الله المعجز المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المكتوب في المصاحف، وهكذا تخبط أهلُ الاستشراق في مسائل كثيرة عن جهل أو تجاهل، من ذلك عدم معرفتهم للناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح.

تصورهم للمسلمين[1]

يستفسر أحد المستشرقين عما إذا كان الإله الذي يعبده المسلمون هو إله اليهود والنصارى- أم لا؟ يصرح الدكتور لسيوس -بأن إله الجميع واحد إلا أن القسيس زويمر خالفه في هذا الرأي وقال: (مهما يكونوا موحدين فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين لأن إله المسلمين ليس له قداسة ومحبة...).

إن المسلم في نظر الدراسات الاستشراقية هو: وحش - ابن شيطان -أهل لواط، مشرك، يعبد الأصنام، ولهم مجمع من الأصنام الذي يضم الإله جوبيتر،

---

(١) المستشرقون والاسلام،د. عرفان عبد الحميد ص ١٠-١٢.

آبولو، ايانا، أفلاطون، والمسيح الدجال...) وقيل: (إن العربي المسلم) هو راكب الجمل إرهابي معقوف الأنف - شهواني شره وإن الثروة التي عندهم لا يستحقونها وإن هذه إهانة للحضارة الحقيقية.

هذا مجمل رأيهم في الأمة الإسلامية والمسلمين ونسوا أو تناسوا بأن أمة الإسلام هي تلك الأمة التي قال الله في حقها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] و﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] والتاريخ شاهد على أن المسلمين كانوا دوماً رمز الرحمة والسلام والأخوة والتقدم والعز والأمان.

نماذج من خطة الاستشراق والتبشير في إثارة الفتن بين الأديان والفرق

حين انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠ من بلاد الشام وانتشر القلق والفوضى والاضطراب فيها وانقسم الناس على أنفسهم واغتنم الموفدون الأجانب - لا سيما رجالات البعثات التبشيرية - ضعفَ نفوذ الدولة العثمانية في البلاد حينئذ أخذوا يشعلون نار الفتنة، وما مرَّ عام واحد وحلت سنة ١٨٤١م حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها حتى اضطرت الدولة العثمانية بتأثير ضغط الدول الأجنبية أن تضع للبنان نظاماً جديداً فقسمته إلى قسمين: يسود النصارى في قسم مدة ويسود الدروز في القسم الآخر، ويعين حاكم للقسمين، وأرادت بذلك أن تتفادى الاحتكاك بين الطائفتين غير أن هذا النظام لم ينجح لأنه لم يكن طبيعياً [الفتنة بين الموارنة والدروز].

انَّ الفتن باب من أبواب التدخل الأجنبي الاستعماري وقد تدخلت كل من إنجلترا وفرنسا في هذا الخلاف وكانتا تشعلان نار الفتنة كلما حاول القائمون على الأمر إخمادها، وأخذ الإنجليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاك بين الطوائف ذريعة للتدخل في شؤون لبنان وانحاز الفرنسيون إلى جانب الموارنة وانحاز الإنجليز إلى جانب الدروز مما أدى إلى تجديد الاضطرابات سنة ١٨٤٥م بشكل فظيع شمل الاعتداء فيه الأديرة والكنائس واستعمل فيه السلب والنهب والقتل مما اضطر الحكومة العثمانية إلى إرسال ناظر خارجيتها إلى لبنان ليتلافى الأمر بما لديه من الصلاحية المطلقة ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ناجحاً وإن كان قد أخمد الحالة نوعاً ما، إلا أن المبشرين ازدادت تدخلاتهم وما أن جاءت سنة ١٨٥٧حتى بدأت فكرة الثورة والاصطدامات المسلحة في طائفة الموارنة فقد قام رجال الدين الموارنة بتحريض الفلاحين على الإقطاعيين وهاجموهم في

لبنان الشمالي هجوماً عنيفاً واشتعلت نار الثورة ثم امتدت إلى الجنوب فثار الفلاحون النصارى على الإقطاعيين الدروز وأخذت كل من إنجلترا وفرنسا تؤيد جماعتها، فالإنجليز يؤيدون الدروز والفرنسيون يؤيدون النصارى، وبذلك توسعت الفتنة توسعاً عاماً حتى شملت جميع لبنان وأخذ الدروز يقتلون جميع النصارى لا فرق بين رجال الدين وغيرهم حتى قتل وشرد آلاف من النصارى من جراء القسوة التي كانت تنطبع بها الاضطرابات إلى سائر بلاد الشام.

الفتنة بين المسلمين والنصارى:

لقد عمد الاستعمار ومن ورائه المستشرقون والمبشرون إلى إشعال الفتنة بين المسلمين والنصارى وبين المسلمين والهندوس، ويهدف من هذا إلى إيجاد جو من البغضاء والشحناء وتأصيل العدواة بين أبناء البلد الواحد بغية إبعادهم عن معرفة الإسلام والتحقق من أهداف القرآن الإنسانية ونوره ورحمته للعالمين، ولهذا فالإسلام يحرص على إيجاد جو هادىء حر من أجل إقناع الناس لأن الرضى شرط من شروط الإسلام لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد نهج الاستعمار هذا المنهج وهو نفس منهج الجاهلية الذي اختطه المشركون فقال تعالى حاكياً حالهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] وقد نفذ مثل هذا في بلدان كثيرة ففي الهند أثاروا ولا يزالون يثيرون الفتن وايقاع القتل والخصومات بين المسلمين والهندوس، كما أنهم كانوا وراء موجة من البغضاء والمقاتلة بين المسلمين والنصارى في الشام في شهر تموز سنة ١٨٦٠م إلى أن يهاجم المسلمون حي النصارى ويقوموا بمذبحة كبيرة وقد صاحب تلك المذابح شيء من التعذيب والتدمير والاضطراب حتى اضطرت إلى وقف الفتنة بالقوة وبالرغم من أن الاضطرابات خمدت وكادت تنتهي لولا أن يداً أجنبية أرادت استمرار الفتنة لأنها من أسباب بقائهم وسيطرتهم على البلاد.

ويكشف (حقيقة الإسلام) رجل عُيِّنَ قنصلاً لبلاده في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧١م هو السير ريتشادر وود الذي عمل في دمشق والجزائر يقول في تقريره[١]: (إن من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يحبذ انتشار المعارف والتحلي بالعلوم وهذه الأوهام باطلة) ثم يقول: (وأكثر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة والسيف وهذا الظن مخالف للواقع).

والذي يبحث بحثاً دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو أصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرصة لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة الدروز وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين أن الاعتداء يبتدىء من جانب النصارى (وكان ريتشارد قنصلاً في دمشق في فتنة ١٨٦٧).

وزعت وكالة تاس السوفياتية في بيروت مقالاً نشرته جريدة (برافدا) في موسكو لمراسلها في بكين عاصمة الصين جاء فيه: (لقد أدخل الاستعماريون الأمريكيون إلى الصين مبشرين من مختلف المذاهب استخدموهم منذ أمد بعيد في أعمال الجاسوسية)[٢].

إثارة الطائفية:

قال المطران مبارك اللبناني سنة ١٩٤٨ في باريس: (إن لبنان بلد كاثوليكي ويحاول المسلمون أن يستعبدوه كما يحاولون استعباد جميع المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين- ويجب أن يكون لليهود وطن قومي كي يتمكنوا من العيش الهادىء وإلا فإن أية ولاية غير إسلامية لا تستطيع أن تعيش بحرية وتمارس معتقداتها الدينية تحت سيطرة إسلامية بحتة)[٣].

---

(١) ترجمة السيد محب الدين الخطيب وطبعته المطبعة السلفية (القاهرة) ١٩٦٠.

(٢) النشرة الصادرة في الثالث عشر من حزيران من عام ١٩٥١في العدد ١١٣.

(٣) مجلة بيروت المساء في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ص٥ نقل عن مجلة Paris الباريسية.

ويرى زويمرحينما علم أن نفراً من النصارى يدعون إلى مصادقة المسلمين في الصين (إن هذه الصداقة تخلف في نفس النصارى جبناً عن التبشير).

وفي عام ١٨٨٧م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٩٢٠ وأتبعوا ذلك بإصدار (المجلة الآسيوية).

تألفت في لندن في عام ١٨٢٣م جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية وقبل الملك أن يكون وليّ أمرها وأصدرت هذه الجمعية (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية).

وأنشا الأمريكيون في عام ١٨٤٢م جمعية باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية) وأصدروا بهذا الاسم مجلة تعنى بالدراسات الاستشراقية.

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة (العالم الإسلامي The Muslim World) وهي مجلة أنشأها (صموئيل زويمر) في سنة ١٩١١.

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة (العالم الإسلامي) في روحها واتجاهها العدائي التبشيري واسمها (Le Mond Musulman).

والأسلوب الأخير: إنشاء (الموسوعة الإسلامية) وقد أصدروها بعدة لغات وبدأوا بإصدار طبعة جديدة منها. وقد بدىء بترجمة الطبعة الأولى إلى اللغة العربية- وصدر منها حتى الآن (١٣) مجلداً.

ومن هذه الموسوعة التي حشد لها كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام قد دُسَّ السم في الدسم ومُلئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به، ومن المؤسف أنها مرجع الكثير من المثقفين عندنا بحيث يعتبرونها حجة[1].

---

(١) ص٢٠٦، ص٢٠٩، لمحات من الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب.

وكانت بعض الصحف الغربية أدوات رئيسية في هذه المعركة وفي مقدمتها (جريدة التايمز) التي يمكن للقراء بالاطلاع عليها العلم بأنها أشد الصحف عداوة للإسلام وتأجيجاً لضراوة الحملة عليه.

من وسائل الاستشراق عقد المؤتمرات من أمثال مؤتمر لكنهو سنة ١٩١١. عقد مبشرو البلاد الإسلامية من البروتستانت مؤتمرهم الثاني العام في مدينة لكنهو الهند يوم ٢١ يناير سنة ١٩١١، أي بعد خمس سنوات من مؤتمر القاهرة؛ ومعلوم أن المبشرين كانوا قد تفاوضوا في مؤتمر أدنبرج عن مقاومة الإسلام ودرسوا وسائل مناضلته من كل الأوجه. ولما عقدوا مؤتمر لكنهو ارتاحوا إلى ما رأوا من نجاحهم واشتركوا مع رئيسهم القسيس زويمر في معرفة موقف الإسلام وقوته وأسبابها، وأظهروا استعداداً لتطبيق أعمالهم على الحالة الحاضرة.

والظاهر من مطبوعات البروتستانت ومنشوراتهم أنهم يتذرعون بالتؤدة في بذل المجهود لمعرفة موقفهم وميدان عملهم ودرس عامتها وهم لا يفوتون شيئاً من هذا القبيل ومنشأ هذا التضامن في جماعة المبشرين البروتستانت هي المواهب العملية التي امتاز بها الأنكلوسكسوني والمزايا النظامية التي اختص بها الجرماني. ثم قالت هذه المجلة: طلبنا من القسيس زويمر أن يوافينا بملخص أعمال المؤتمر منذ انعقاده فأجابنا إلى طلبنا وأرسل لنا مجموعة تضمنت أبحاث المبشرين في ذلك المؤتمر.

الاستشراق واستغلال الشعوب والمؤسسات العلمية

قال شكيب أرسلان: ثم اطلعت في هذا الكتاب[1] نفسه عن فصل آخر لمبشر يقال له المسيو فور يتكلم عن البعثة الإنجيلية في بلاد الغابون أو الكونغو الفرنسي يقول فيه: إن هذه البلاد بعد أن ضمت إليها مستعمرة الكامرون الألمانية صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات وأن سكانها أقوام مختلفة من سود إفريقية منهم مسلمون وأكثرهم فنيشيون؛ ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله:

إن الأوروبيين قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها، فإذا كانت أمم لمبونغوي والغالوة والنكومي وغيرها قد انقرض أكثرها فما ذاك إلا لكون النخاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الأقوام ويستعبدونهم ويبيعونهم، ولكون أكثر أرباح التجار البيض هي من تجارة السلاح والبارود والمكسرات.

وبالآخر فلنقل الحقيقة وهي أن الزنا مع ما يجره من الأمراض التي كانت تفني هؤلاء الزنوج إنما فشا فيهم بواسطة الأوروبيين. ولكم من جرم جَرَّهُ الأوروبيون بين هؤلاء السود البؤساء. ومما لا نقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصري إن هو إلا استغلال المستعمرات وأهلها بأيِّ وجه كان.

وقال المبشر «المسيو الليغر» في معرض حديثه عن (الكامرون):

أما موضوع الإسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه، فقد سبق لنا أن بينا كيف أن (نجويا) سلطان البامون ولّى وجهه شطر الإسلام ولكن إسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية أخرى وأخرى مسيحية وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسماه « طريق الحياة» وفي الحقيقة أنه (فيتشي) يعني أنه وثني - لم يسلم إلا ليكونَ القائدَ المطلق لشعبه ولو لم

---

(١) «عصر في إفريقية والأوقيانوس» لجمعية التبشير الإنجيلية الباريسية مطبوع في السنة ١٩٢٣.

تكن البعثة الإنجيلية قد دخلت في البلاد لربما كان الإسلام قد عَمَّها، وقد خالطت بنفسي أمة (البله) الذين في بامون فوجدتهم مسلمين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة، فظهر لي أنه يمكننا زرع الإنجيل بين هذه الأمم التي تغلغل فيها الإسلام، وأن نوقف تقدمه بل نهاجمه رأساً في أماكنه فيلزم أن نعيد إلى الكنائس الأهلية الصبغة التبشيرية ونجعلها دائماً تحت سيطرة رسالات رعاية ولا ننفك عن الدعوة ونذكر كنائس سواحل الكامرون بأن الإسلام الذي أخنى على جميع كنائس شمال إفريقية عليه أن يخنى عليها هي إن لم تتدارك هذا الخطر عاجلاً)[1].

المؤسسات التعليمية والمهنية: وقد اتخذت المدارس والجامعات وسيلة من وسائل تثبيت أركان الاستعمار في البلاد الإسلامية ولم يكن ذلك يتخذ طريقاً سرياً بل بعضهم يعلن ما يخفي في نفسه دون خجل أو احترام لأهل البلد الذي ينعم بخيراته (يقول المستر بنروز رئيس الجامعة الأمريكية بين سنة ١٩٤٨- ١٩٥٤) يقول: (إن المبشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة. . .) ثم يتابع قوله فيقول: (ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان).

ويبدو أن معنى قوله: (قد أحدثوا بينهم آثار نهضة) المقصود به العمل على سلخ المسلمين عن دينهم؛ وهذا فيما يبدو لي هو هدف المبشرين الذي أثبته زويمر في مؤتمر المبشرين حين قال: (ليس هدفنا أن نشرف المسلمين بالمسيحية وإنما هدفنا أن ننشىء جيلاً لا يؤمن بالله) وسنتحدث في مجال آخر عن التعاون بين التبشير والحركات الإلحادية في بذر الأفكار الكافرة الملحدة وتشكيك المسلمين بربهم وبدينهم.

إن جميع الأعمال التي تقوم بها المؤسسات الموفدة إلى بلاد المسلمين يجب أن تستغل كل أعمالها لخدمة التبشير وتثبيت دعائم الاستعمار.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج٢ص ١٨ التبشير.

ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير واستغلوا جميع المناسبات؛ فصناعة التطبيب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة إلى لغة كلها يجب أن توجه توجيهاً يفيد التبشير.

وقد استخدمت مهنة الطب كوسيلة من وسائل التبشير والاستعمار؛ ولقد ضاعت الأهداف الإنسانية في مهنة الطب وصرح هؤلاء المبشرون بغايتهم من الأعمال الطبية وغيرها فيقول الطبيب هارنسون في كتابه: «الطبيب في بلاد العرب»:

«إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفىً ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها. لقد وُجِدْنا نحنُ في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى»[1].

وقالت ايرا هاريسي تنصحُ الطبيبَ الذاهبَ بمهمة تبشيرية: «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرر لهم الاهتمام بالإنجيل. إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق ولعل الشيطان يريد أن يفتنكَ فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير».

ومما نجده من الكتب المسمومة التي تُدَرَّس في بلادنا ومنها الطعن الفاحش وسوء الخلق وانعدام المروءة والحقد الكبير على الإسلام وأهله وهذا كتاب يُدَرَّسُ مثلاً في الصف الرابع من المدرسة البطريركية في بيروت ويدرس بلا ريب في مدارس أخرى كثيرة في لبنان وفي غير لبنان (وهو مطبوع في لبنان) والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا تاريخ محاضرات ج إيزاك. حررها أ. البا للشرق الأدنى، لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى) طبعته مطابع الآداب الفرنسية في بيروت جاء في هذا الكتاب: ص٣١.

واتفق لمحمد أثناء رحلاته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له من رؤيا أقنعته بأن الله اختاره رسولاً.

---

(١) Paul W.Harison ND Doctor oroloca.

ص٣٢: والقرآن مجموعة ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة.

ص٣٦: وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل.

ص١٢٦: دخلت فلسطين في سلطان الكَفَرة منذ القرن السابع للميلاد.

وأما كتاب تاريخ فرنسا تأليف هـ. غيومان وف. لوستير (لصفوف الشهادة الابتدائية) هذا الكتاب يدرس في مدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت، وفي مدارس هذه الإرسالية في غير بيروت بلا ريب وقد جاء فيه مما نحن بصدده ص٨٠-٨١: إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يُخْضِعُوا العالَمَ وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو. ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى: إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: «أسلموا أو تموتوا» بينما أتباع المسيح رَسَّخُوا النفوس ببرهم وإحسانهم. ماذا كان حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذاً لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين.

النتائج السلبية للدراسات الاستشراقية:

١-يقول أحد الباحثين عن نتائج الاستشراق ما يلي:(... ومهما كانت درجة احتفاظ الاستشراق بالغموض الذي أحاط به كمجرد ميدان من ميادين الدراسة فلم يكن ممكناً إلا أن يكون الاستشراق متورطاً في كل التطورات التاريخية التي حدثت في العالم الثالث، فالاستشراق هو الذي بسط لهم أسباب السيطرة ونظم المعلومات التي عاد بها المستكشفون، ووفَّر الخطوط الأساسية لإرشاد الغزاة والفاتحين، وأخيراً تقدم للشعوب المقهورة بنظريات لخضوعهم وتخلفهم وافتقارهم إلى التنمية وعدم قدرتهم على استيعاب العلوم بالإضافة لخلق الاختلافات المذهبية والنعرات الطائفية.

٢- إذا كان الاستعمار وقواه احتلت الأرض وسلبت الأموال واستغلت الخيرات وعاثت في البلاد الفساد - فقد كان أخطر النتائج التي أعقبت الغزو العسكري ذلك الغزو الصليبي الجديد هي تلك التبعية الثقافية التي بدأت إعجاباً بالمعالم المدنية والمبتكرات الصناعية وتحولت إلى شيوع روح الانهزام الفكري وضياع روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية لدى فريق ممن تَخرَّجَ على أيدي أساطين الاستعمار ووفق خططه ومناهجه إلا أن تأثيرهم السيء قد تسرب إلى المجتمع الإسلامي بل تَعدَّى الأمرُ أنَّ بعض المسلمين يردد ببلاهة وضياع شخصيته - كلمات الرجعية والتقدمية والتطور والتجديد، ويحاول أن ينقل التجارب الخاصة بالغرب وحده إلى الجو الإسلامي نقلاً تاماً دون تمحيص أو تمييز، وانتشر الإلحاد والانهيار الخلقي، وأخذ التقليدُ لأعداء الإسلام صورة التشبث التام بأسس الثقافة الغربية والحضارة المادية بل لقد بلغ الإسفاف في هذا التقليد حَدَّ الذوبان الكامل في بعض تفاهات المجتمع الغربي وأوضاعه التي يشكو هو منها وصَحَّ في هؤلاء قولُ الرسول ﷺ: « لَتتبعنَّ سَنَنَ من قبلكم شبراً بشبر أو ذرعاً بذراع حتى لو دخل أحدهم جُحْرَ ضب لدخلتموه. . . ».

وقد كان لهذا الغزو الفكري آثار بالغة في تأثير الثقافة الغربية على الناشئة المسلمة فلقد كان الاستعمار بحملاته العسكرية وغزوه الفكري وسيطرته السياسية والاقتصادية محنة حقاً للعالم الإسلامي كله[١].

وأخطر النتائج السلبية التي خلفتها الأعمال الاستشراقية هي:

أ- تشويه الثقافة والفكر الإسلاميين بجوانبها المتعددة في العالم الإسلامي وعند المجتمع الغربي.

ب- إضعاف الروح الدينية والأسس العقيدية عند المسلمين - أي انخفاض الروح الدينية بين المسلمين، واعتاد المسلمون نتيجة ذلك الحكم الكافر وأنظمته.

---

(١) انظر: الإسلام في غزوة جديدة، أنور الجندي ص٣٤-٣٥.

ج- قيام الأوضاع الاجتماعية والسياسية الكافرة في العالم الإسلامي.

د- تحريف الأسس- بل الدين الإسلامي - بأسماء وشعارات براقة مثل بدع التجديد.

هـ- انتشار الأفكار الغربية المسيحية والسيطرة الاستعمارية العسكرية والسياسية في العالم الإسلامي.

و- انقسام العالم الإسلامي إلى دول وبلاد مختلفة ومتنازعة فيما بينها في كثير من الأحيان.

ز- تسمم العقل الأوروبي تجاه الإسلام، وخلق نظرة غريبة الهيئة وحاقدة على الإسلام.

٤- إن الاستشراق قد فشل في أن يكون دراسة إنسانية بنفس القدر الذي فشل فيه بأن يقدم لنا دراسة ثقافية، فهو بمواقفه التي اتسمت بمعارضة لا تلين تجاه منطقة معينة من العالم يعتبرها غريبة عليه أظهر تقاعساً في التعاطف مع الخبرات الإنسانية.

الفصل الرابع

مناهج المستشرقين في القرآن الكريم

المبحث الأول

دراسة تحقيقية في أصنافهم والمآخذ عليهم

يبدو من دراسة مناهج المستشرقين في القرآن الكريم ما يأتي:-

١ . الصنف الأول وهو الصنف الأكاديمي الذي درس الاستشراق دراسة منهجية في الجامعات والمراكز العلمية وهؤلاء يغلب عليهم التعصب ولهم أهداف مسطرة من قبل الحكومات والحركات التبشيرية المتعددة.

٢ . الصنف الثاني وهم الذين يكتبون عن الإسلام والشرق وهم قسمان.

أ. قسم أرادوا أن يحققوا أهدافا معينة فيها انتقاص من الإسلام وأهله ولهذا نجد في دراساتهم العشوائية والبعد عن المنهج العلمي ويبدو الحقد فيها واضحاً.

ب. قسم لم يضع مسبقا أهدافاً معينة وهم قلة ولا يزال في نفوسهم بغض للإسلام وأهله ولذا نجد في كتبهم الغث والسمين(١).

المآخذ على المستشرقين التي أدت إلى وقوعهم في الخطأ:

أولاً. عدم أخذ الإسلام من مصادره الأصلية، الكتاب والسنة أو من العلماء المسلمين والمعتمدين وإنما اعتمدوا في دراساتهم ما كتبه من سبقهم من المستشرقين ولهذا صار عندهم أعلام ومفكرون كتبوا عن الإسلام واعتمدت آراؤهم ومن هؤلاء اجنس كولدتسيهر وشاخت وغيرهما مما جعل أغلب دراساتهم تتسم بالنقص والتشوية والبعد عن المنهج العقلي المعهود.

---

(١) دراسة في الحديث النبوي الشريف.

ثانياً. يضع أحدهم الهدف والنتيجة أولاً ثم يتلمس الأدلة الواهية أو المختلقة للوصول إلى ذلك فمثلاً يضع في المقدمة أن القرآن الكريم ليس من الله تعالى وحيا على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ولهذا نجدهم يتحدثون عن تجارة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويصوغون فوق ما ذكر الأساطير والافتراءات.

ثالثاً. وتدل مناهجهم على أنهم لايريدون أن يعترفوا إلا بديانتين اليهودية والمسيحية[1] ويعدون كلما ذكر في الإسلام إنما هو مأخوذ منهما حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن يصور النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) قسا نصرانيا تمرد على البابوية وأراد أن يظهر زعيما دينيا لدين جديد وهذا الاتجاه هو الاتجاه الفكري الاستعماري نفسه الذي يريد أن يخضع العالم الإسلامي لهؤلاء وليس لمسلمٍ أن يقود أهل الكتاب في المسيرة الإنسانية العالمية.

رابعاً. تتسم مناهجهم بالتشكيك دون التحقيق العلمي والاستدلال العقلي فيكفي عندهم أن يقولوا عن الوحي الذي نزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنه مرض عقلي يصيبه فيكون معه هذيان (وهو ما ينطق به الرسول صلى الله عليه وسلم) عن ربه من آيات الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً ولا يعقبون على أقوالهم بأي دليل يدل على ما ذكروا فإن الأقوال التي تصدر عمن يصابون بالحمى تكون مضطربة وغير منضبطة. والقرآن المنزل عن الله معلوم في إعجازه واتساقه الفكري.

خامساً. البعد عن دراسة نصوص القرآن الكريم وخاصة عند أولئك المغرضين فلقد ابتعدوا في مناهجهم عن مناقشة القرآن الكريم في إعجازه واشتماله على نظام إنساني كامل مما لم تعهده التوراة والتلمود والأناجيل المتعددة لكون هذا يوصل إلى حقائق لا يريدون ذكرها وإظهارها وابتعدوا عن مناقشة السنة النبوية المؤلفة وما احتوته من قواعد وأحكام وحكم ونظريات إنسانية خالدة.

---

(١) مناهج المستشرقين -د. عبدالقهار العاني د. سعدون الساموك ص ٦١-٧ وزارة التعليم العالي - بغداد.

سادساً. البعد عن قواعد المنطق السليم والمنهج العلمي: لقد وجدت أغلب المستشرقين في دراستهم القرآنية لا يلتزمون قواعد العلم والمنطق وإنما يضعون لأنفسهم مقدمات خاطئة باطلة ويبنون عليها النتائج وهو يشبه منهج اليهود في محاجة المسلمين في قضية القبلة.

إنهم يعدون رأيهم حقاً علمياً لا يناقش ورأي غيرهم يتسم باللافهمية وعدم العلمية ولهذا نجدهم يبنون على ما توصلوا إليه من نتائج دون مراجعتها وتدقيقها ومن هنا وجدنا بعضهم يحمل حملة عشواء على بعض المستشرقين المنصفين في بعض القضايا وينعتونهم بأوصاف الجهل وعدم اتباع قواعد المنطق والبعد عن الموضوعية.

سابعاً. عدم الإحاطة العلمية التامة بالموضوع: فحيث يتحدثون عن موضوع معين لا تجدهم يستقصون النصوص والآراء وإنما يكتبون بحدود نصوص معينة يرون فيها تحقيق أهدافهم وترويج أباطيلهم.

ثامناً. الحرص على إتقان عملية التسلل الفكري بطريقة لا يشعر بها إلا القليل من الباحثين وذلك بالمدح والإطراء على الرسول (ﷺ) وعلى بعض جوانب معينة من الإسلام ومن ثم الانتقال إلى إبراز هوة الخلاف المزعوم في الفكر الإسلامي والعقائد والاستشهاد بأحداث تاريخية مشبوهة لا يعرف حقيقتها إلا من درس أسبابها وملابساتها ونتائجها ويظهر ذلك هولد فيكو ماراتش (١١٧٢-١٨٠٠) (الذي كان يسمى بالمرعشي. فهو يقول في كتابه (دراسة عن الإسلام) (لو أردت وصف حياة محمد حسب رواة كتابنا لتعرضت لسخرية المسلمين فإن هناك اختلافاً كبيراً بين ما نتناقله نحن عن محمد وبين ما يراه المؤرخون المسلمون حتى إن القارىء لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته ولذلك سوف أتبع المؤرخين ليس لأني أعتقد بصدق كل ما يقولون بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء أمتنا لا بد لنا أن نحاربهم بأسلحتهم أضف إلى ذلك أن كثيراً من كتابنا يذكرون أموراً عن محمد لا يمكن أن تثير لدى المسلمين إلا السخرية ولا تزيدهم إلا تمسكا بعقائدهم الباطلة[1].

---

(١) المستشرقون بين الانصاف والعصبية، محمد علوي مالكي مطابع سحر جدة، ٤٠٢ ومناهج المتشرقين ص ١٣٧-والفكر الاسلامي الحديث ص ٥٩٣- ٦٠١عن المستشرقين الناطقين بالإنجليزية مجلة The Muslim World عدد تموز ٢٩٦٣ ترجمة د. محمدفتحي عثمان.

المبحث الثاني

غوستاف لوبون والقرآن الكريم

وممن تحدث عن القرآن الكريم العلامة لوبون ورغم أنه عرف بالمعرفة والتحقيق لكن لكونه لم يعرف حقيقة القرآن وتأريخه فقد وقع في أخطاء من خلال بحثه فقال في مبحث- خلاصة القرآن-:

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس ودستورهم الديني والمدني السياسي الناظم لسيرهم وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أُنزل وحياً من الله على محمد؛ وأسلوب هذا الكتاب وإن كان جديراً بالذكر أحياناً خال من الترتيب فاقد السياق كثيراً ويسهل تفسير هذا. عند النظر إلى كيفية تأليفه قد كتب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة؛ فإذا ما اعترضت محمداً معضلة أتاه جبريل بوحي جديد حلاً لها ودوّن ذلك في القرآن ولم يجمع القرآن نهائياً إلا بعد وفاة محمد وبيان الأمر أن محمداً كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد فلما انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الرابع[1] على قبول نص نهائي للقرآن مقابلاً بين ما جمعه أصحاب الرسول، والقرآن مؤلف من مئة وأربع عشرة سورة وكل سورة مؤلفة من آيات؛ ومحمد هو الذي يتحدث فيها باسم الله على الدوام.

ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان ومع ما في هذا من مبالغة شرقية نعترف بأن في القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبق إليها كتاب ديني آخر[2] وتقرب فكرة الكون الفلسفية في القرآن مما في الديانتين الساميتين العظيمتين اللتين ظهرتا قبل الإسلام أي

---

(١) الصحيح أن الخليفة الثالث هو الذي فعل ذلك فكان عزوه إلى الخليفة الرابع سهواً من المؤلف (المترجم).

(٢) إن إعجاز القرآن معلوم ثابت متواتر تحدى الله العرب والعجم من أن يأتوا بسورة مثله.

اليهودية والنصرانية وزعم أن العنعنات الآرية والفارسية أو الهندية ذات نصيب ظاهر في االنصرانية والإسلام؛ ونحن نرى النفوذ الآري في الإسلام ضعيفاً جداً.

وقد استشهد بآيات قرآنية لكل موضوع اختاره فقال:

وإنني أبدأ بما جاء في القرآن عن مصدره وعن قُرْباهُ الوشيجة بالكتب المقدسة التي أتت قبله:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

خلاصة القرآن الكريم وأسلوبه

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ[1] ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ[2] وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ[3] وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٥-٢٠].

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[الشورى: ١٣].

وإله محمد واحد في السماء، واسمع تعريف النبي:[4]

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٣].

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) الخُنَّس: الكواكب السيَّارة التي ترجع إلى أول البرج وسميت خنساً لتأخرها.

(٢) الجوار الكنس: الكواكب السيارة لأنها تجري مع الشمس والقمر وترجع إلى أول البرج حتى تختفي تحت ضوء الشمس.

(٣) عسعس: أقبل بظلامه أو أدبر وهو المناسب لقول (إذا تنفس).

(٤) كان الأولى أن يقول لوبون الفرنسي: واسمع تعريف القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي ﷺ له ولكنه كبقية المستشرقين لا يعترفون بأن القرآن الكريم من عند الله وأن محمداً ﷺ هو نبي مرسل من الله.

الله في القرآن الكريم:

وإله القرآن الواحد وإن يكن شديداً شِدَّةَ إله التوارة جبار عزيز ذو انتقام يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، جاء في القرآن:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

﴿وَٱلْفَجْرِ ☆ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ☆ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ☆ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ☆ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ☆ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ☆ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ☆ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ☆ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ☆ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ☆ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ☆ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ☆ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ☆ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١-١٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

القرآن وخلق السموات والأرض ويوم الحساب:

وما جاء في القرآن من نص على خلق السموات والأرض في ستة أيام وخلق آدم والجنة وهبوط آدم منها ويوم الحساب مقتبس من التوارة. . .

وهكذا نجد أن غوستاف لوبون يقعُ في الوهمِ الذي وقع فيه غيره من أن القرآن أو بعضه قد اقتُبِسَ من التوراة والإنجيل، والأمر الذي يجب أن يُعلم أن القرآن الكريم تحدى العرب والعجم والإنس والجن أن يأتوا بمثله سوراً أو آيات من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

والقرآن الكريم قد احتوى من المعارف والأنظمة وقصص الغيب ما لا نجده في الكتب التي سبقته.

وإليك وصف محمد ليوم الحساب[١]: وكان الأولى به أن يقول بوصف القرآن الكريم ليوم الحساب لأن القرآن الكريم من عند الله وليس من عند النبي محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثم ذكر الآيات:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٦].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ☆ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ☆ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ☆ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ☆ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٥].

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ☆ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ☆ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ☆ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ☆ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ☆ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ☆ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ☆ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ☆ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ☆ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

---

(١) لوبون ص ١٢٠.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٤٩].

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۞ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٣].

وفي النار ضروب العذاب كما يرى محمد، ومن ذلك:

﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢].

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٥].

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعينُ، ومن ذلك:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۞ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ مُدْهَآمَّتَانِ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ☆ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ☆ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٤-٧١].

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ☆ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ☆ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ☆ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ☆ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ☆ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ☆ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ☆ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٤].

مسامحة الرسول ﷺ لليهود والنصارى:

وكان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافًا لما يظن لا للملحدين ولا للمشركين الذين يُوصِي بمقاتلتهم، وإليك قوله عنهم: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨].

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

القضاء والقدر في القرآن الكريم.

ولم أجد في القرآن ما يعاب به الشرقيون وما يمكن أن يعاب به كذلك كثير من العلماء المعاصرين من الجبرية المزعومة فيجوز أن يعد به محمد أكثر جبرية[١] مما في التوارة، وإليك مع ذلك ما استطعتُ أن أجده جوهرياً في القرآن حول هذه المسألة:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

---

(١) الحقيقة أن هذه المسألة قد بحثها المسلمون واختلفوا فيها؛ ولايوصف بها الرسول ﷺ؛ وانما ظن ذلك لما وجد من آيات تدل على أن الأمر لله وحدة؛ وأن القضاء والقدر لله عز وجل؛ فأطلق الفظكة الجبر على النبي ﷺ، وكما أن هناك ايات تدل على أن الإنسان جبري كذلك هناك ايات تدل على أن الإنسان مسؤول عن اكتسابه للأفعال، ولذلك يقول ابن رشد بعد بيان الأدلة السمعية التي تدعم كلاً من الرأيين: (ولذلك افترق المسلمون في هذا المعنى ألى فرقتين:- فرقة اعتقدت أن اكتساب الإنسان هو سبب المعصية والحسنة وأن اكتسب هذا ترتب عليه العقاب والثواب وهم المعتزلة -فرقة اعتقدت نقيض هذا هو أن الإنسان مجبور على أفعاله ومقهور وهم الجبرية. وأما الأشعري فإنهم راموا أن يأتوا بقولٍ وسط بين القولين فقالوا:- إن اللإنسان كسباً وأن المكتسب به والكسب مخلوقان لله تعالى؛ بل الحق هو في التوسط بين هذين الرأيين، وذلك بأن نقرر أن أفعال الإنسان ليست اختارية تماماً ولا اضطرارية تماماً وإنما اواحد وهذا هو ما يميل إليه العلم الحديث الذي لاينفي حرية تجري دائماً على نمط واحد وهذا هو مايميل إلية العلم الطبيعة. « مناهج الد لة بن رشد» تحقيق د. محمود قاسم، ط٢، ص ١١٩.

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٣].

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [فاطر: ١١].

﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤].

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

الرد على غوستاف لوبون في مسألة نزول القرآن مفرقاً على النبي ﷺ

نزول القرآن مفرقاً على النبي ﷺ في بضع وعشرين سنة، وقد كان ينزل وفق الحوادث والأسئلة التي ترد، وقد ينزل القرآن في غير ذلك مراعياً إصلاح النفس الإنسانية وفق منهج رباني خاص، وإن وراء نزول القرآن مفرقاً حكماً وأسراراً ذكر بعضها الله سبحانه وتعالى في كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الآيات كانت تنزل تسلية وتثبيتاً للرسول ﷺ، بدحضِ مُفترياتِ المشركين وأهلِ الكتاب مما يتقوّلونه ويتخرصونه وقال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦] فتدل هذه الآية على حكمة التدرج في قراءة القرآن وفهمه، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون الخَمْس والعشر من الآيات مع العمل بها، بعد فهمها كاملاً.

والحكمة التي تتجلى في هذا التنزيل ولها أثرها في تربية الأفراد والجماعات وأخذ النفوس بما يلائمها ولا يخرج عن طاقتها المحدودة هو التدرج في التشريع، إذ بهذا التدرج أقلعت النفوسُ عن كثير من المساوىء الاجتماعية، التي لم يستطع أيُّ قانون أن يلغيها أو يحدَّ منها، وأصدقُ مثل على ذلك أن الإسلام قد حرم الخمرة على مراحل فقال تعالى: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] - فالعقولُ النيّرةُ المُرْهفةُ الإحساس أدركت سر هذا الحكم، فتركت شرب الخمر، وبقي أغلبية الناس ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]،

وذلك عندما جاء أحد المسلمين، وكان قد شرب الخمر قبيل الصلاة فأمَّ الناسَ، فقرأ سورة [الكافرون]، وقرأ السورة خطأ ﴿أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]. فحذف «لا» من الآيات وذلك غير جائز للمسلم، وبعد نزول تلك الآية أدرك آخرون السرَّ في تحريم شرب الخمر عن إتيان الصلاة فتركوها ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وعندما سمع المسلمون هذه الآية انتهى الجميعُ عن شربها، وتخلص المجتمع الإسلامي من رذيلة ومصيبة، من أعظم ما تُصَابُ به الأمم. وهكذا نجد التجاوب النفسي بين الأفراد والقانون في التشريع الإسلامي، على عكس القوانين الوضعية التي يضعها بشر، لا يستطيعون التخلص عند وضعها من أهوائهم ورغباتهم.

فهذه أمريكا شرعت قانوناً بتحريم الخمرة، والتزمت هذا التحريم مجالسُ الكونغرس الأمريكي والمجالس الأهلية والجمعيات، وصرفت الحكومة آنذاك ملايين الدولارات - واستخدمت كل وسائل الإعلام والنشر، واستمر الحال على هذا أربعة عشر عاماً، فوقع الأمريكيون في شر من الخمرة وشربوا السموم الموجودة في شتى العقاقير كالسبيرتو، كل ذلك لم يفعلْ فِعْلَ كلمة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ التي وردت في القرآن الكريم، وعندئذ رجع الذين حَرَّمُوها فأباحوها، ورجع الناسُ إلى الخمرة كالسابق، بل أشد.

ولو أردنا أن نستقصي الحكمة في ذلك، لطال بنا النظر وقصرت الهمم، وأحجمت العقول عن إدراكها، فإن تحت كل كلمة في القرآن سراً يبهر الألباب ويأخذ بالنفوس، ولكننا نتلمس ما يَتَّسع المجال فيه لمعرفة حكمة هذا التنزيل.

فإن طبيعة الإسلام كخاتم للأديان، يقضي بأن يهيىء الجماعة التي تستطيع أن تحمل رسالته بعد رسول الله ﷺ وإلى أن تقوم الساعة لأن رسالة الإسلام إنما هي رسالةٌ عامةٌ للبشرية جميعاً، ورسول الله ﷺ إنما هو رسول للناس كافة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. حتى تستنيرَ البشريةُ بهذا الدين، الذي جعله

الله كاملاً في كل شيء، يلبي حاجات البشرية فيما يصلحها قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وأما عن القربى الوشيجة بالتوارة والإنجيل، فإن القرآن الكريم والتوارة التي أُنزلت على موسى والإنجيل الذي أُنزل على عيسى كانت وحياً من الله، وتتفق هذه الكتب السماوية في الأصول العامة فهي تؤمن بالله وبالنبوة وباليوم الآخر وبالبعث والحساب والجنة والنار... إلخ. قبل أن يحلَّ تحريفٌ في التوراة والإنجيل.

«التوحيد في القرآن الكريم»

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص وفارقَ كلَّ الأديان التي خالطت في عقيدتها وخلطت في تصورها لوحدانية الله عز وجل فكانت الأقانيم عند النصارى وتصور اليهود الله عز وجل بما فيه خلط كثير بعيداً عن معاني التوحيد وصفات الله المنزهة لله تعالى.

فهذا لوبون يقول[1]- فلسفة القرآن- انتشاره في العالم - مبيناً حقيقة التوحيد عند الإسلام: إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عدّ الإسلام صورة مُبسَّطة عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام مختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصلٌ أساسي وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمنٌ على كل شيء مما لا قدرة للملائكة والقديسين عليه وغيرهم ممن يفرض تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أولُ دينٍ أدخل التوحيدَ إلى العالم.

ويبين لوبون الصفات المميزة للإسلام من حيث فطرته ووضوحه وسهولته مما جعل انتشاره عظيماً وقبوله سهلاً لِماَ فيه من العدل والإحسان والمساواة: (وتُشْتَقُّ سهولةُ الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، وإدراكهُ سهلٌ خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالباً من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقلّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد وبمساواةِ جميعِ الناس أمام الله وببضعة فروضٍ يدخلُ الجنة مَنْ يقوم بها ويدخل النار مَنْ يُعرِض عنها).

وإنك إذا ما اجتمعتَ بأيِّ مسلم من أي طبقة رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثبيت والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون

---

(١) لوبون ص١٢٥.

من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل. وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أقرَّ به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسّر بهذه المزايا سببَ اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسّر السبب في عدم تَنَصُّرِ أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة علىالعموم بل إلى مدى تأثير عقائده، والإسلام إذا ما نُظِرَ إليه من هذه الناحية وُجِدَ من أشد الأديان تأثيراً في الناس وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة... إلخ، يعلّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف فضلاً عن ذلك كيف يصب في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات[1].

(١) المصدر السابق، ص١٢٥-١٢٦.

«القرآن والسيف»

لم يكن انتشار الإسلام إلا بسبب وضوح الإسلام وفطريته والمعاملة الحسنة التي كان يستخدمها أولو الأمر من المسلمين، فلقد كان أمراء المسلمين على نصيب عظيم من التواضع والتسامح والمساواة والعدل مما لم يَعْهَدْهُ أولئك الأقوامُ من أبناء جنسهم، وإنما كانت القوة الإسلامية لحماية قوة العقيدة للناس، تختار الدين الذي يوافق فطرتهم ونظرتهم العقلية والنفسية؛ وهذا ما جعل الأقوام المختلفة من نصارى ويهود وغيرهم قد أسلموا؛ ولهذا تجد لوبون يذكر الآراء الخاطئة المضللة حول الإسلام والقرآن وانتشار الإسلام في العالم؛ ثم يذكر رأيه المبني على الدليل والواقع فهو يقول:

ورأى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزوها إلى ما زعموه من تَحَلُّلِ محمد وبطشه، ويسهلُ علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس فنقول: إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصراحة، وأنَّ ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريباً على الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمد وأن هذه الشعوب لم تجد نفعاً جديداً في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلل محمد نقضه العلامةُ الفيلسوف (بيل) منذ زمن طويل، وقال بيل بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادىء الأخلاق هو أشدّ مما أمر به النصارى (إن من الضلال أن يُعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلى أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شَقَّ من التكاليف والأعمال الصالحة وأنه يبيح له البقاء على سيِّء الأخلاق وقد دوّن هوتنجر قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى مع القصد في مدح الإسلام أن هذه القائمة تحتوي أقصى ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام).

وسيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلامَ واتخذوا العربيةَ لغةً لهم فذلك لِمَا رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل[1].

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفْـرَضُ بالقوة فلما قهرَ النصارى عرب الأندلس فضَّل هؤلاء القتلَ والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآنُ بالسيف إذن بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التي قهرت مؤخراً كالترك والمغول؛ وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العربُ فيها غير عابري سبيلٍ ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها[2] ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى؛ ولم يكن - القرآن - أقلّ انتشاراً في الصين التي لم يفتح العربُ أيَّ جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها ويزيد عدد مسلميها على عشرين ميلوناً في الوقت الحاضر[3].

وقد كان لما نشره غوستاف لوبون أثره في الدراسات الاستشراقية رغم أنه كانت له مواقف سيئة في نظرته إلى العرب كقوم معينين أو إلى قدرتهم الفكرية والعقلية، فهو أثر واضح يدل على الغيرة والحسد والتعصب للحضارة الأوروبية فكأنهم لا يريدون أن تظهر االحضارة الإسلامية وكأنها أصلٌ للنهضة الأوروبية الحديثة أو ندٌّ لها.

---

(١) لوبون، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) أي في تلك الفترة التي كتب فيها لوبون كتابه، الواقع آلهم أكبر من هذا الرقم بأضعاف مضاعفة.

(٣) لوبون ص ١٢٨، أي زمن كتابة لوبون لكتابه.

يقول المستشرق الفرنسي الأب الدكتور ميشال آلار من خلال حديثه عن الترجمة العربية لبعض كتب المستشرقين والتقليل من أهمية تلك الترجمة أو شمولها لمعاني النص الأصلي: (لنضرب مثالاً على ذلك: لقد سمعت بعض الطلاب يستشهد بكتاب غوستاف لوبون «حضارة العرب» على أنه يمثل الاستشراق الفرنسي والفكر المسيحي الغربي وهذا الكتاب ترجمه إلى العربية عادل زعيتر وظهرت طبعته الأولى في القاهرة سنة ١٩٤٥ ثم طبع ثانية سنة ١٩٤٨ وأعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٥٦ وربما ظهرت طبعات أخرى منذ ذلك الحين. ومع هذا فإن قيمة الكتاب العلمية مشكوك فيها على أقل تقدير قبل كل شيء لأن تاريخ تأليفه يرجع إلى سنة ١٨٨٤ يوم لم تكن المعلومات المتوافرة عن التراث العربي الإسلامي تمثل شيئاً يذكر ولأن نشر عدد كبير من المخطوطات في السنوات المئة الأخيرة أتاح لنا تجديد معرفتنا بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية تجديداً كاملاً، ولهذا فإن كتاب لوبون قديم وغير مُجْدٍ، وفضلاً عن ذلك لم يكن للكتاب قيمةٌ علمية كبيرة حتى إبّان ظهوره، فالمؤلف وقد كان طبيباً ولم يضع سوى عدد من الكتب التي تنتمي إلى كتب تبسيط المعارف وتعميمها أكثر من انتمائها إلى الكتب العلمية، ولقد اعتمد في تأليف كتابه على الكتب المترجمة إلى اللغات الأوروبية فقط لأنه كان يجهل اللغة العربية، فالقسم المتعلق بالتاريخ من كتابه ضعيف إذاً).

ويظهر عدم منهجية البحث العلمي عند هذا المستشرق حيث إنه يستدل على عدم أهمية بحث لوبون لكونه كان سنة ١٨٨٤ يوم لم تكن المعلومات المتوافرة عن التراث العربي الإسلامي تمثل شيئاً يذكر ولأن نشر عدد كبير من المخطوطات.

في السنوات المائة الأخيرة أتاح لنا تجديد معرفتنا بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية تجديداً كاملاً» ثم يصل إلى هذه النتيجة: - (ولذا فإن كتاب لوبون قديم وغير مُجْدٍ) لقد كانت هذه المقولة دليلاً على أن ما ذكره لوبون هو قليلٌ بحقِّ الحضارة العربية الإسلامية، لأنه اعتمد على مصادر قليلة محدودة ومعظمها مترجمة عن الحضارة

الإسلامية، ومن المعلوم أن المخطوطات الكثيرة التي كُشفت بعد لوبون أظهرت الحضارة العربية الإسلامية في أعلى صورها في البحث العلمي والاختراعات العلمية ويظهر عدم عدله في الحكم حين قال: (وفضلاً عن ذلك لم يكن للكتاب قيمة علمية كبيرة حتى إبان ظهوره).

وبعد ذلك يذكر ما يبرر أقواله حيث قال:- (وكان الأخطر من هذا كونه رجلاً ملحداً ذا ميول عنصرية واستعمارية ساذجة واضحة، وأنه يجاهر باحتقاره العميق للعرب المعاصرين متذرعاً بالموضوعية ولقد ذكر في الصفحة الرابعة والأربعين من كتابه ما يلي: «ليس البدوي العربي في واقع الأمر سوى نصف متوحش... نصف متوحش ذكي طبعاً إلا أنه لم يَخْطُ منذ آلاف السنين أي خطوة نحو الحضارة، وبالتالي فإنه لم يتأثر بأي من التحولات المختزنة في الإنسان المتحضر».

«ولقد اعتدنا اليوم أن نصدر أحكاماً على العرب من خلال النماذج المتحضرة التي يعرضها لنا سكان سوريا ومصر والجزائر وقد أذلتهم أنواع الاختلاط والاستعباد كافة».

إنه وإن كان لوبون رجلاً ملحداً فإن رأيه في الإسلام كما رأيناه رغم إلحاده يدل على أن الإسلام في مبادئه والقرآن في إنسانيته وسموه الروحي وأصالته الحضارية هو الذي دفعه إلى أن يذكر الآراء الصحيحة الواقعية في الإسلام وأهله، ومع كل ما ذكرناه فإننا نجد هذا المستشرق يرجع فيقول عن لوبون:

«وإنه في خاتمة كتابه لا يخفي مشاعره الاستعمارية والامبريالية إذ يقول:

«إن الشرقيين لا يفتقرون ليضارعوا شعوب أوروبا المتحضرة إلاّ إلى أمرٍ واحد وهو أن يصبح لديهم طبقة كافية من الرجال المتفوقين وبضعة رجال عظام، ومن حُسْنِ حظنا على كل حال أنهم يفتقرون إلى هؤلاء الرجال لأن نوعية جماهير شعبهم ستتيح لهم بيسر عندئذ أن يحلُّوا محلَّنا وأن يتصدروا الحضارة بدورهم من جديد». يمكنكم أن تراجعوا قول لوبون في الصفحة ٦٧٤ من كتابه)[١].

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوروبية، جامعة بيروت العربية، الاستشراق =

ومع كل هذا التشكيك فإن أكثر ما أغاظه العبارة الأخيرة من قول غوستاف لوبون: «لأن نوعية جماهير شعبهم ستتيح لهم بيسر عندئذ أن يحلوا محلنا وأن يتصدروا الحضارة بدورهم من جديد».

وهكذا يظهر لنا عدم انضباط منهجية كثير من المستشرقين في الكليات أو الجزئيات مما يجعلُ الباحثَ في ريبٍ دائماً من البحوث الاستشراقية.

وإننا لنجد في لوبون مع اعتدال منهجه ووضوح أحكامه وصراحته في مواضع متعددة لكننا نجده في مواضيع أخرى متأثراً بآراء أولئك المستشرقين الذين يخلطون في موضوع الوحي أو القرآن ومصدره والإسلام وربانيته وألوهيته، ولهذا وجدناه فيما ذكر سابقاً وما سنورده من نصوص حين ينسب إلى الرسول ﷺ أنه أخذ من الأديان ما يلائم الإسلام وهو يبدأ بذكر فطرية الإسلام التي يعقلها العامي كما يعقلها الفلاسفة فهو يقول:- ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلاسفة، وكان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمرئه قومه، وقد وفّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار مَنْ تَقَدَّمَهُ من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلاً أن ما أُوحيَ إليهم صحيح، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فُروعٌ ثلاثة لأصلٍ واحد وأنها ذات قربى وشيجة. والدين الذي دعا النبي إليه الناس سهل جداً وقد عرّفه محمد بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزيّ العرب وسأله عنه وهي: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» وهذا التعريف الذي قبله جبريل تام كما هو واضح.

ويلخص المسلم الإسلام في هاتين الكلمتين اللتين لا يُنْكَرُ إيجازهما وهما: (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

= الفرنسي المعاصر للأب الدكتور ميشال آلارض ٤٥-٥١، طبعت في دار الأحد (البحيري إخوان)، بيروت.

(وأما قوله: إنه أخذ من الأديان الأخرى - ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار مَنْ تَقَدَّمة من أنبياء بني إسرائيل-) وغير ذلك فإن هذا راجع إلى عدم فهم الأصول التي تتفق كل الأديان عليها وهي الإيمان بالله، الإيمان بالرسل، الإيمان بالغيب، والاعتقاد بيوم الحساب والجنة والنار.

وإن كون القرآن يثبت ما دعا إليه النبي محمد ﷺ هو الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وهو دعوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام، وأما غير ذلك فالإسلام دين من الله تعالى في كل نصوصه في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

المبحث الثالث

جولد تسيهر ومنهجه في الدراسات القرآنية

١٨٥٠-١٩٢١

هذا الرجل عرف بشهرته العلمية عند الغرب والشرق وكانت بحوثه واسعة عميقة؛ ولكنه في الحقيقة رغم كل ما ذكرناه كان حريصاً علىتتبع الآراء الشاذة وتصيد الأراء الواهية؛ وكان الأَوْلى به أن يقارن بين النصوص ويتلمس الحق، ولا يضيرنا أن يذكر كل الآراء الواردة بهذا الشأن ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وجولد تسيهر ينسب المعرفة الدينية التي تلقاها محمد ﷺ إلى عنصرين: خارجي وداخلي، فيقول: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها عميقاً والتي رآها جديرة بأن تُوقِظَ في بني وطنه عاطفةً دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لونٍ من الحياة يريده الله. لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً»[١].

وجولد تسيهر يريد أن يفرغ حقده ويبث سمومه في صدر كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» الذي ترجم، وإني لآسف لِمَنْ تَرجمه فترك عباراته وتُهَمَهُ دون الردِّ عليها؛ بل كانت مقدمة المترجمين ثناء على بحوثه، ولهذا أؤكد على ضرورة الرد على هؤلاء بلغتهم الأجنبية لا ترجمة سمومهم وشبهاتهم فهو يقول:

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، (ت) يوسف وموسى وزميله، ١٢(ط مصر ١٩٤٨).

«فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نصٌّ مُنْزَلٌ أو مُوحَى به يقدم نصه في أقدم عصور تداوله بمثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في النص القرآني»[(١)].

أفبعدَ ما ذكرنا نجد أحد الباحثين المسلمين يقول فيه: (يشاء أن يهب الإسلام من الأوروبيين مَنْ يؤرخون له كساسة فيحددون التاريخ ومن يبحثون فيه كدين وحياة روحية فيتعمقون في هذا البحث ويبلغون الذروة فيه أو يكادون ومن يُقْبِلون على الجانب الفسيولوجي منه فيظفرون بنتائج على جانب من الخطر كبير. فكان له على رأس هؤلاء الأخيرين تيودور نلدكة وعلى رأس أولئك الأولين يوليوس فلهوزن. وكان سيد الباحثين فيه من الناحية الدينية خاصة والروحية عامة (أجنتس جولد تسيهر)[(٢)] وعين رئيسا لأحد أقسام الأكاديمية المجرية سنة ١٩٠٧، ويظهر أنه قد أقام بالقاهرة فرغب أن يحضر بعض الدروس في الأزهر وكان ذلك بالنسبة لأمثاله امتيازاً كبيراً ورعاية عظيمة، وانظر ما قيل فيه بعد تلك الفترة من حياته: (ومن مكتبه في مدينة بودابست ظل جولد تسيهر أكثر من ربع قرن شمساً ساطعة استمرت ترسلُ في عالم البحوث الإسلامية ضوءاً يبدد قليلاً قليلاً ما يحيط بنواحي الحياة الدينية الإسلامية من ظلام، وينير السبيل أمام الباحثين في الوثائق التي سجلت منها تلك الحياة، وينمو على حرارته جيل ضخم ممن كانوا بالأمس القريب أو ممن هم اليوم أئمة المستشرقين).

وهكذا نجد صاحب كتاب «موسوعة المستشرقين» ينبهر انبهاراً عظيماً بمنهج جولد تسيهر جعله يصر على أنه المنهج الصحيح ويقارن بينه وبين منهج (مالينو وبكر) ويوحي للقارىء بصدق هذا المنهج وأنه نابع عن شعور، ومستند على ركيزتي النقل والعقل.

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي، ص٤.

(٢) موسوعة المستشرقين، ص١١٩.

ولننظر في أقوال جولد تسيهر لنتبين منهجه صدقاً أم كذباً حقاً أم باطلاً طالباً الحقيقة أم ساعياً إلى التضليل والتشكيك فهو يقول في مبحثه عن تفسير القرآن ويتحدث عن عبد الله ابن العباس رضي الله عنه وعن حقيقة تفسيره فيقول: (كان رأي ابن عباس يرجع إلى رجل يسمى أبا الخلد غيلان بن فروة الأزدي الذي أثنى الناسُ عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويختم التوراة في ستة يقرؤها نظراً فإذا كان يوم ختمها حشد لذلك ناس وكان يقول: كان يقال: تنزل عند ختمها الرحمة. وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب في الاستفادة من التوراة. ومن المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس نجد أيضاً كعب الأحبار اليهودي وعبدالله بن سلام وأهل الكتاب على العموم ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه في أقواله حذر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم... ولم تكن التعاليم الكثيرة التي أمكن أن يستقيها ابن عباس والتي اعتبرها من تلك الأمور التي يرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية فقد كان يسأل كعباً عن التفسير الصحيح لأم القرآن والمرجان مثلاً. وقد رأى الناس في هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم -على العموم- في القرآن وفي كلام الرسول ﷺ وما فيهما من المعاني الدينية ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد من كل جهة ا.هـ[١].

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين في هذا الافتراء، ومن المؤسف له أن الأستاذ أحمد أمين رغم أن له كتباً كثيرة في الفكر والتاريخ لكنه وقع في أخطاء كبيرة منها اتهامه للصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه بالوضع في الحديث متابعاً بذلك أهلَ الباطنية وأبا ريَّة الأزهري المصري الذي أسرف في هذا الأمر وافترى على أبي هريرة افتراءات كثيرة، وقد رَحّب ببحوثه أهل الباطنية والمستشرقون.

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، جولد تسيهر، ص ٦٥-٦٧.

ولهذا تُرجم كتابهُ إلى اللغة الأجنبية ليكون مادة للمستشرقين في الطعن بحديث رسول الله ﷺ من حيث ثبوته وصحته. فيقول: (وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. روي أن النبي ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم ا.هـ[1]. وقد رَدَّ عليهم بصدقٍ وعلم صاحبُ كتاب «التفسير والمفسرون» ونبه على الغاية التي يحرص عليها (تسيهر) من تأثير اليهودية على الإسلام وخاصة في تفسير كتاب الله العزيز القرآن الكريم فقد قال: (فالأستاذ جولدتسيهر والأستاذ أحمد أمين يريان أن الصحابة -وبخاصة ابن عباس لم يأبهوا لنهي الرسول ﷺ فصدقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير في التفسير وأن اللون اليهودي قد صبغ مدارس التفسير القديمة وبالأخص مدرسة ابن عباس بسبب اتصالهم بمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب)[2].

وقد كان رده رحمه الله غير حاسم حيث قال: (والحق أن هذا غلو في الرأي وبعد عن الصواب، فابن عباس كما قلت آنفاً وغيره من الصحابة كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ولكن لم يكن سؤالهم عن شيءٍ يَمسُّ العقيدةَ أو يتصل بأصول الدين وفروعه وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية ولم يكونوا يقبلون كل ما يُروى لهم على أنه صوابٌ لا يتطرق إليه الشك بل كانوا يحكمون دينهم وعقلهم فما اتفق مع الدين والعقل صدقوه وما خالف ذلك نبذوه وما سكت عنه القرآنُ

---

(١) فجر الإسلام، ص٢٤٩.

(٢) التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ص٢٧، ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة. وأستاذنا الذهبي من أفاضل العلماء الذين عُرفوا بسعة العلم والغيرة على الدين وعزة النفس التي جعلته لا يأبه بكثير من أمور الدنيا، فكان يقول كلمة الحق لا يخاف في الله لومة لائم. رحمه الله رحمة واسعة.

واحتملَ الصدقَ والكذب توقفوا فيه، وبهذا المسلك يكون الصحابة -رضوان الله عليهم- قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: «حَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وقوله: «لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتاب ولا تكذبوهم»[1].

والحق الذي لا مِرْيَة فيه أن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وغيره لم يأخذوا في تفسيرهم للقرآن الكريم عن أهل الكتاب، وما نسب إليهم لا صحة له، وقد أغنانا الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ من الأحكام والحكم ما يجعلنا نبقى في ذاتية العقيدة والفكر والسلوك وكما قال رسول الله ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وَسِعَهُ إلا اتِّباعي».

وقد روى البخاري في «صحيحه» أن عبد الله بن عباس قال: (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهلَ الكتاب وكتابكم الذي أُنزل على نبيه ﷺ أحدثُ الأخبار بالله تقرؤونه لَمْ يُشَب، وقد حَدَّثكمُ الله أن أهلَ الكتاب بَدَّلُوا ما كتب الله غيّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩] أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أُنزل عليكم»[2].

---

(١)

(٢) المصدر السابق، ص٧٣-٧٤، البخاري، كتاب الشهادات، ج٢ ص١٨٥، فتح الباري.

المبحث الرابع
نولدكة والقرآن

١٨٣٦-١٩٣٠

«نولدكة المستشرق الألماني -والقرآن»

لقد كانت مباحث بعض المستشرقين قد انحرفت عن الطريق العلمي المعهود مما جعل بحوثهم تظهر شاذة تدل على الحقد والتعصب الذميم ومن هؤلاء نولدكة:

فقد نفى نولدكة المستشرق الألماني في كتابه «تاريخ القرآن» أن تكون فواتح السور من القرآن مُدَّعياً أنها رموز لمجموعات الصحف، التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلاً حرف الميم كان رمزاً لصحف المغيرة، والهاء لصحف أبي هريرة، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص، والنون لصحف عثمان؛ فهي عنده إشارات لملكية الصحف وقد تُركت في مواضعها سهواً ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن فصارت قرآناً[١].

وقد بدأنا بذلك لنصدر هذا القول له وقد عدّه الباحثون من المستشرقين الكبار الذين تصدروا الاستشراق في ألمانيا وغيرها أنه (يُعَدُّ شيخَ المستشرقين الألمان من غير مدافع، وقد أتاح له نشاطه الدائب وألمعية ذهنه واطلاعه الواسع على الآداب اليونانية وإتقانه التام لثلاث من اللغات السلفية -العربية والسريانية والعبرية- مع استطالة عمره حتى جاوز الرابعة والتسعين. أن يظفر بمكانة ليس فقط بين المستشرقين الألمان بل بين المستشرقين جميعاً)[٢].

---

(١) محمد غلاب، نظرات استشراقية في الإسلام، ٤٢، ط. دار الكتب، القاهرة.

(٢) موسوعة المستشرقين، د.عبد الرحمن بدوي، ص٤١٧.

حصل على الدكتوراة الأولى في سنة ١٨٥٦ في رسالته عن (تاريخ القرآن) وهو الموضوع الذي خَصَّه نولدكة فيما بعد بأهم كتبه وأشهرها، وتابع دراسة المخطوطات العربية في بلدان مختلفة في ألمانيا، ودرّس تفسير (سفر أشعيا) في جامعة جيتنجن الشهيرة.

ويبدو أنه اهتم بتاريخ القرآن حيث أنه اشترك في الجائزة الكبرى التي أعلنتها أكاديمية باريس عن جائزة لبحث يكتب في هذا الموضوع فتقدم له نولدكة وتقاسم هو وأمشير نجو وميكليه أماري الظفر بالجائزة التي ضُوعفت حتى نال كل واحد من الثلاثة مبلغ (١٣٣٣,٣ فرنك فرنسي).

وقد دفعه اهتمامه الكبير في الدراسات القرآنية أن قام بنشر رسالته (تاريخ القرآن) التي كتبها باللاتينية -باللغة الألمانية منقحة.

وهذه الطبعة توسع فيها جداً فيما بعد بالتعاون مع تلميذه اشقالي[١].

---

(١) المصدر نفسه، ص٤١٩.

المبحث الخامس

ريجي بلاشير

١٩٠٠-١٩٧٣

مستشرق فرنسي.

١- قضى أكثر عمره في المغرب العربي وحصل على دكتوراة الدولة من باريس سنة ١٩٣٦ وعين خبيراً في السوربون، له مؤلفات عن تاريخ الأدب العربي.

٢- ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية مع مقدمة طويلة وتفسير قصير وقد رتب الترجمة وفقاً لاجتهاده في نزول السور والآيات الكريمة، ثم عاد إلى الترتيب الأصلي الوارد في المصحف في الطبعة اللاحقة.

٣- ألف كتاباً يلخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة محمد ﷺ[١].

---

(١)

ريجي بلاشير

١٩٠٠-١٩٧٣

ولد في باريس وقد كان اهتمامه واضحاً بالدراسات العربية. عُيِّنَ أستاذَ اللغة العربية الفصحى في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، وشغل منصب مدير معهد الدراسات الإسلامية الملحق بجامعة باريس -١٩٥٦-١٩٦٥- ألف كتاباً في تاريخ الأدب العربي منذ البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر ولم يتمه. وقد كانت ترجمته للقرآن أولاً غريبة حيث رتب الآيات والسور كما يوحيه اجتهادهُ، ثم رجع فترجمه وفق الترتيب الأصيل المعروف للقرآن الكريم في جزأين. صنف كتاباً صغيراً لخص فيه أبحاث المستشرقين عن النبي ﷺ.

وبلاشير على اعتداله في أحكامه يتحدث في كتابه «معضلة محمد» عن مصدر القصص القرآني ذاكراً بالخصوص أن مما لفت انتباه المستشرقين هو التشابه بين هذه القصص وبين القصص اليهودي المسيحي. وقد كان التأثير المسيحي واضحاً في السور المكية الأولى أن كثيراً ما تكشف مقارنته بالنصوص غير الرسمية كإنجيل الطفولة الذي كان سائداً في ذلك العهد عن شَبَهٍ قوي. ويعرض في هذا الصدد آراء بعض الباحثين مبيناً رأيه فيما يستنتج من العلاقات المستمرة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة[١].

وورد في كتاب تاريخ الأديان:

(كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مُفْعماً بالعواطف، قصير العبارات فخم الصورة يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة، وكثيراً ما يكرر الآيات

---

(١) موسوعة المستشرقين، بدوي، ص٨٢.

تكراراً حتى تنقلب معانيها إلى الضد. فلما تقدم الزمن بالنبي فقدَ الأسلوبُ منهجه الأول، وأخذ يقصُّ في نغمات هادئة بديعة قصصَ الأنبياء مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته (بوتيفار) وكانت هذه الصورةُ مثيرةً لخيالِ كثيرٍ من شعراء الفرس والترك. وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن وأُغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى).

وقد أثنى بعض المستشرقين على كتابه «تاريخ الأدب العربي» وإنْ كنت أشكُّ في هذا الثناء حيث إن صاحب البحث (بلاشير) وجدت فيه بعداً عن المنهج العلمي حيث إنه انتقده لوبون في بيانه للحضارة العربية الإسلامية وإظهار فضلها على أوروبا والعالم أجمع فهو يقول: (أما كتابه «تاريخ الأدب العربي» الذي يقع في ثلاثة أجزاء تعالج فقط عصر الجاهلية والقرنين الأول والثاني من الإسلام فإنه على العكس من ذلك مؤلف أساسي يُعْمِلُ روحَ النقد والعقل في دراسة هذه الحقبة من حقب الثقافة العربية. وإن ترجمته القرآن إلى الفرنسية التي قام بها بلاشير جديرة بالاهتمام أيضاً رغم أن إلحاد المؤلف حمله أحياناً على فهم النص ذي الأبعاد الدينية والصوفية فهما عقلانياً مسرفاً)[١].

ومن المؤسف أن بعض الباحثين المسلمين قد اعتمد آراءه في الدراسات القرآنية[٢].

---

(١) انظر: عن القرآن لمحمد صبيح، (١٤٤-١٤٧) (ط. مصر ١٩٣٩).

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في البلاد الأوروبية، جامعة بيروت، المستشرق الفرنسي، الأب الدكتور ميشال آلار ص٥٥.

المبحث السادس

فويلز

١٨٠٨-١٨٨٩

وهو مستشرق ألماني يهودي الديانة ولد في زولتسبروج -أقام في بعض البلاد العربية كالجزائر، والقاهرة. وأقام فيها أربع سنوات، وله دراسات في اللغة العربية وآدابها والسيرة النبوية والنبي محمد ﷺ، وأما ما كتبه عن الدراسات القرآنية:

١- مقدمة تاريخية نقدية للقرآن سنة ١٨٤٤ في ٢١ صفحة وفيه يتكلم عن جمع القرآن والتسلسل التاريخي لسوره وآياته.

٢- نشر عن الوحي القرآني على الرسول ﷺ:

أ- نشر تعليقه في (المجلة الآسيوية) (يوليو ١٨٤٢) جمع فيها عدة مواضيع لمؤلفين مسلمين تتعلق بأحوال نفسية كانت تنتاب النبي. . .

ب- رسالة إلى رينو عن واقعة تتعلق بالنبي في بدء رسالته في المجلة الآسيوية (عدد مايو ١٨٤٣).

٣- لقد كان يتخيل الرسول محمداً ﷺ (رجلاً دفعته طموحاته ووساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين لِيُعَدَّ في زمرة القديسين فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية وقام بنشرها في قومهِ فاتّبعها رجال منهم)[١].

٤- لقد دفعت هذا المستشرق أحقاده إلى أن يخلط في تصوره للإسلام وللرسول ﷺ، فتصور الإسلام عقائد خرافية وآداباً سطحية، وليته فتح قلبه للنور وعقله للحق ونفسه للعلم لأَبتْ كباحثٍ أن يُعَدَّ ممن يفترون على الله وعلى رسوله وعلى المسلمين جميعاً.

---

(١) موسوعة المستشرقين ص٢٧١-٢٧٣.

المبحث السابع

هوبرت جريمني

يقول المستشرق هوبرت جريمني في كتابه: «محمد»: «لم يكن محمد في بادىء الأمر يبشر بدين جديد؛ بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية، فالإسلام في صورته الأولى الأصلية لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه. ذلك لأننا إذا نظرنا إليه عن كثب نراه (لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة) وهو على الأخص يدعو إلى إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين، لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين (وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته)»[1].

وهكذا نجد هذا المستشرق يريد أن ينفي الوحي القرآني والنبوة الصادقة للرسول محمد ﷺ، فليس ما دعا إليه رسول الله ﷺ في نظره وحياً من الله تعالى، والقرآن إنما هو نظرة خاصة من قبل الرسول محمد ﷺ في الإصلاح الاجتماعي والعدل الاقتصادي. وهذا يدل على تخبط سببه الحقد على الإسلام والمسلمين، وجهل بأصول الشريعة ومبادئها ونظمها العامة؛ بل إن أول أمر أَكَّدَ عليه الرسولُ ﷺ هو التوحيد الذي لا يَصحُّ الإسلام إلا به «لا إله إلا الله» والتصديق بنبوة محمد ﷺ «محمد رسول الله».

(١) مناهج المستشرقين، د. التهامي نقرة، ص٣١.

المبحث الثامن

المستشرق كليمن هوار

إن المستشرق كليمن هوار كتب فصلاً[(١)] زعم فيه أنه اكتشف مصدراً جديداً للقرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت[(٢)] وقارن بينه وبين آيات القرآن فاستنتج صحة هذا الشعر بما يلاحظ من فروق بين ما ورد فيه وما ورد في القرآن من تفصيلٍ لبعض قصصه كأخبار ثمود وصالح مستدلاً على ذلك بأنه لو كان هذا الشعر منحولاً لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن، ثم يزعم أن استعانة النبي به في نظم القرآن حملت المسلمين على مقاومته ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة وليصح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء[(٣)].

---

(١) نشر الفصل في المجلة الآسيوية سنة ١٩٠٤ عن التهامي ص٣٣.

(٢) أمية بن أبي الصلت شاعر عاش في الجاهلية والإسلام وكان يخبر أن نبياً يبعث قد أظل زمانه مؤملاً أن يكون هو ذلك النبي فلما بلغته بعثة رسول الله ﷺ كفر حسداً، وكان رغب عن عبادة الأوثان، ولما أَنْشِدَ رسولُ الله شِعْرَهُ، قال: آمن لسانه وكفر قلبه. وكان يحكي في شعره قصص الأنبياء (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٤٢٩ (ط. مصر ١٣٦٤هـ).

(٣) المصدر السابق ص٣٣.

المبحث التاسع

توسدال وشبهاته في القرآن

وأورد توسدال شبهات الناقدين للقرآن الكريم واتهامه في مصدره الإلهي ومنها هذه الأبيات التي نسبوها إلى امرىء القيس والتي لا تخلو من بعض التعبيرات القرآنية. . .

دنــت الساعة وانشــقَّ القمر   عن غزالٍ صاد قلبي ونفر

أحور قد حرتُ في أوصافه   ناعس الطرف بعينيه حور

بسهامٍ من لحاظٍ فاتك   تركتني كهشوم المحتضر

وهكذا يتخبط هؤلاء المستشرقون في شبهاتهم المحمومة وافتراءاتهم الكاذبة، وليس لهم هدف إلا إخفاء حقيقة الإسلام عن الشعوب الغربية والشعوب الشرقية في المعسكرين خشية أن تتفتح قلوبهم وعقولهم لنور الإسلام، وهذا أمر خطير على دول الكفر ودهاقنته، ولكني على يقين أن علماء المسلمين إن استطاعوا أن يوضحوا الإسلام على فطرته وأن يتمسك المسلمون بمبادىء الإسلام وتعاليمه ليكونوا صورة صادقة وأسوة حسنة عند ذاك نجد هؤلاء يدخلون في دين الله أفواجاً ولن تؤثر فيهم عند ذلك الشبهات والتخرصات، ولهذا نجد الأستاذ العقاد يقول: (وليس ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم. إنهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الآيات وصباً واصباً لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ولا يلهمهم الذوق الأدبي. إن نظرة واحدة كافية لليقين بدحض نسبتها إلى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية)[1].

---

(١) العقاد، إسلاميات، ٥١-٥٣ (ط. مصر دار الشعب).

«أفيكون هذا القرآن الذي لو نزل في هذا العصر لما اختلفت نظرته للكون ولا وصاياه للإنسان وقد حوى من كنوز المعرفة ما لم يَحْوِهُ سِفْرٌ نابعاً من استعداد محمد الشخصي أو مما اقتبسه في بيئته من أهل الكتاب أو بعض الأعراب... وأيُّ أُمِّيٍّ في التاريخ يقطع مرحلة الشباب هادئاً لم يُؤْثَرْ عنه علمٌ ولا حكمة -أما الحكمة فكانت مأثورة عن النبي ﷺ حتى قبل الإسلام ولعل واقعة الحَجر تُثبت ذلك- ولا شِعْرٌ ولا خطابة ولا ثبات الأبطال والزعماء ثم ينفتح فجأة في الأربعين على عالم جديد فيصلح أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها، ويُحْدِثُ ثورةً روحية اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية في سن لا يتأتى لمن بلغ مثلها أن يبتدىء أو يبتدع فيها علماً أو فناً أو يسنّ فيها شرعاً أو ينهض في العالم بانقلاب عظيم ما لم يكن استعداده له وأخذ مقدماته في ريعان الشباب»(١).

---

(١) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ٣٠٢، التهامي ص٣٥.

المبحث العاشر

المستشرق دوراندريه

لقد كان اندريه ممن نَبّهَ على خطأ الطريقة التي سلكها المستشرقون في تلمس الجزئيات وبعض الوقائع أو المسائل في حياة العرب قبل الإسلام وفي اليهودية أو النصرانية واعتبارها دليلاً على أن القرآن قد اخترعه الرسول ﷺ وطوره ليكون هذا القرآن الكريم العظيم الذي حوى أصول الديانة وقواعد العدالة ونظام الإنسانية الكامل.

يقول المستشرق السويدي توراندريه (صاحب كتاب «محمد حياته وعقيدته») معارضاً تلك الطريقة السقيمة التي سلكها بعض المستشرقين في البحث مبيّناً أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية، ومهمة الباحث في رأيه أن يدرك في نظرة موضوعية كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة، فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقيدة الحنفية وتقاليد العرب ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر[1].

---

(١) محمد كامل عياد، مجلة اللغة العربية بدمشق، ج٤ -م٤٤/١٩٦٩ ص٧٩٧، التهامي ص٣٦.

المبحث الحادي عشر

آربري

١٩٠٥-١٩٦٩

في عام ١٩٣٥ نشر كتاباً عظيماً في التصوف هو كتاب «المواقف والمخاطبات» للنفزي وترجمه إلى الإنجليزية وكان ذلك بدعوة من رينولد نيكسون. ومنحته جامعة كمبردج درجة الدكتوراة في الآداب ١٩٣٦. فهرس كثيراً من الكتب العربية والفارسية وترجم وحقق كثيراً من الكتب العربية والفارسية.

سنة ١٩٣٩ التحق بقسم الدعاية في وزارة الحرب في الحرب العالمية الثانية، وكان مصدراً للدعاية البريطانية، وظهر في فلم للدعاية البريطانية.

«وتكفيراً عن هذه المهمة المنحطة فكر آربري في تقديم الشرق إلى الغرب بترجمة كتب عربية وفارسية وتأليف كتب وأبحاث لتفهيم الأوروبيين حقيقة الإسلام: حضارته وآدابه وعقيدته، يقول آربري في هذا الصدد: (قبل أن يتيسر إقرار الحق عن الشرق وشعوبه في الضمير المشترك للغرب ينبغي إزالةُ حشدٍ هائل من الباطل وسوء الفهم والأكاذيب المتعمدة وإنه لجزءٌ من واجب المستشرق ذي الضمير الحي القيام بهذه الإزالة ولكن لا ندعه يحسب أن هذه المهمة سهلة أو أنها خصوصاً سيلقى عنها الجزاء).

وفي أوائل الخمسينات أخذ آربري على عاتقه القيام بترجمة جديدة للقرآن فأصدر أولاً ترجمةً لمختارات من بعض آيات القرآن مع مقدمة طويلة وصدر ذلك، وهو المجلد التاسع من سلسلة بعنوان (الكلاسيكيات الأخلاقية والدينية للشرق والغرب).

وفي سنة ١٩٥٥، صَدَّرَ ترجمته المفسرة للقرآن في مجلدين.

المبحث الثاني عشر

أربينوس

١٥٨٤-١٦٢٤

مستشرق هولندي، له دراسات عربية وواصل أربينوس إصدار كتب مدرسية أخرى لتعليم اللغة العربية فطبع سورة يوسف مضبوطة بالشكل الكامل في مطبعته هذه سنة ١٦١٧ وذلك بعنوان عربي ولاتيني هو (سورة يوسف وتهجي العرب) وترجمته تاريخ يوسف النبي مأخوذ من القرآن بالأصل العربي مع ثلاث ترجمات لاتينية وتعليقات بقلم توماس أربينوس للغات الشرقية/ ١٦١٧)[١].

---

(١)

المبحث الثالث عشر

يوحنا الأشقوبي

(ولد في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر في اشقوبية (إسبانيا الوسطى) وتوفي بعد سنة ١٤٥٦م، وصار كردينالاً سنة ١٤٤٠ وتخلى عنها واعتزل في ديرايتون. وفي خلوته في هذا الدير، فكر في الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام الظافر الذي بدأ يغزو أوروبا خصوصاً بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية في ١٤٥٣)[١].

وهكذا يتبين لنا كيف أن الفتح العثماني على يد محمد الفاتح كان له أثر كبير في أوروبا وغيرها وصدمة كبرى جعلت الصليبيين يأتمرون ويخططون للوقوف ضد الإسلام بكل ما يستطيعون مادياً ومعنوياً ولهذا وجدوا أن السبيل الوحيد هو محاربة الإسلام فكرياً تشكيكاً وتشويهاً وكان من هؤلاء الأشقوبي (ولهذا لم يجد أمامه غير مقاومة الإسلام بالكتابة ضد الإسلام واستعداداً لذلك رأى ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ولما كان لا يعرف العربية فقد استقدم من إسبانيا «فقيهاً» مسلماً يعرف الإسبانية والعربية طبعاً. وكان هذا «الفقيه» يتولى ترجمة الآيات القرآنية فيصوغها يوحنا الأشقوبي باللغة اللاتينية. وبعد أن قام هو وزميله «الفقيه المسلم» هذا بترجمة القرآن إلى اللاتينية أخذ هو في كتابة ردٍّ على الإسلام بعنوان «طعن المسلمين بسيف الروح»)[٢].

---

(١)

(٢)

المبحث الرابع عشر

بالمر

١٨٤٠-١٨٨٢

مستشرق إنجليزي، ومن عملاء الاستعمار البريطاني، وقد لقي حتفه جزاء وفاقاً لعمله هذا. وتتبع اكتشاف الارتباط بين التاريخ المقدس والجغرافيا المقدسة. وفي سنة ١٨٧٠ أصدر كتابين، الأول هو: فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية، ودعاه ماكس ملّر إلى القيام بترجمة جديدة للقرآن لتنتشر في سلسلة «كتب الشرق المقدسة» التي كان ملّر يتولى إصدارها. وقد أتم بالمر هذه الترجمة في ١٨٨١م. وصارت هذه الترجمة واسعة الانتشار مشهورة منذ أن طبعت في سلسلته الشهيرة مع مقدمة بقلم رينولدالين ينكلسون. وبالمر يقول عن أسلوب القرآن: «إن لغته نبيلة وقوية لكنها ليست أنيقة بمعنى التألق الأدبي ولا بد أنها أثارت دهشة وإعجاب سامعي محمد، من ناحية الطريقة التي بها أدخلت في أذهانهم حقائق عظيمة عبّر عنها بلغة الحياة اليومية، ولم يكن في الأسلوب ولا في الألفاظ شيءٌ عتيق ولا حِيَلٌ ولا تمويهات لطيفة ولا محسنات شعرية، لقد كان النبي يتكلم بفصاحة حسنة شديدة في لغة عادية، والتحسينُ الخطابي الوحيد الذي سمح لنفسه به هو جعل فواصله ذوات إيقاعٍ متفاوت الوزن ومعظم عباراته مسجوعة، وهذا أمر كان ولا يزال طبيعياً عند كل خطيب عربي، وهو نتيجة ضرورية لتركيب اللغة العربية»[١].

وإذ قلنا إن أكثر المستشرقين ظلوا أداة بيد الاستعمار ليس في معركة الفكر فحسب مهما كانت الأساليب بل سخّروا أنفسهم لخدمة الاستعمار في معاركه الحربية من أجل

---

(١) الموسوعة ص٤٤.

استعمار الشعوب الحرة الكريمة، فبعد أن ترجم القرآن الكريم وأصدره في سنة ١٨٨٢ أصدر كتابه (النحو المبسط للغات الهندوستانية والفارسية والعربية) إذا به يستجيب للاستعمار البريطاني ليعمل في الجيش البريطاني «فلما راحت بريطانيا في ١٨٨٢ تدبر لاحتلال مصر دعاه الرئيس الأول للبحرية البريطانية لورد نورثبروك في يوم ٢٧ يونيو ١٨٨٢ لمقابلته، وفي المقابلة أخبره أن بريطانيا تريد الاستفادة من خبرته بسيناء واتصالاته بأهلها من قبل، لكي يتصل ببدو سيناء ويؤلبهم ضد مصر ويستخدمهم لتأمين الجانب الشرقي من قناة السويس لصالح بريطانيا. ووافق بالمر على القيام بهذه المهمة الدنيئة التي لا تليق بعالم أبداً»[١]. ولما انزلق في هذا الطريق المنحرف ولم تمنعه ثقافته ولا الدراسات الإنسانية التي تابعها من هذه المهمة الدنيئة فعمل على شراء ذمم البدو في سيناء وصرف عليهم آلاف الجنيهات. ولكن الله كان له بالمرصاد بما غَشَّ وخدع... فأخذ بالمر مبلغ ثلاثة آلاف جنيه للقيام بهذه المهمة وكان معه أربعة أشخاص آخرين هم: كابتن وليم جون جل، واللفتنانت هارولد شارنجتون، وخادم سوري مسيحي يدعى خليل عتيق وخادم يهودي يدعى باخور حسّون. وإلى جانب هذه الجماعة كان معهم مطر أبو صوفية «أبو صفية» وابن أخيه سلامة بن عايض وعدد من الجمّالين البدو. وقد نصب بعض البدو كميناً لأولئك الخمسة واقتادوهم إلى وادي سدر (في الجنوب الغربي من سيناء) وقتلوهم وألقوا بهم في واد سحيق. وذلك في حوالي العشرين من أغسطس ١٨٨٢، وتفاصيل هذا كله موجودة في الكتاب الأزرق (رقم ٣٤٩٤) الذي أصدرته الحكومة البريطانية ١٨٨٣)[٢].

(١) المصدر السابق ص٤٥.

(٢) المصدر السابق ص٤٦.

ولم تكن فقط تذكر استحقاق بالمر لهذه النهاية المخزية وهي نهاية كل من يجعل نفسه أداة بيد الاستعمار، فقد قال آرثر آربري يكاد يقال أن بالمر يستحق هذه النهاية «لأني» هذا قول آربري أؤمن وبكل قوة ورسوخ أن المهمة الحقيقية للعالم هي العلم وليس السياسة (ص١٥١).

ترى كم واحد من المستشرقين لم يفتضح أمره ولم يعرف دوره في خدمة الاستعمار. . .؟.

المبحث الخامس عشر

أوتوبرتزل

١٨٩٣-١٩٤١

ألماني الجنسية من فنش ميونخ.

١- وهو من المستشرقين المشهورين بالدراسات القرآنية فهو يُقْرن مع جوتليف برجشترير وآرثر جفري، وقد أتم مشروع نشر الكتب المتعلقة بالقراءات بعد وفاة برجشترير بنشر كتابين في القراءات.

أ- كتاب «التيسير في القراءات السبع»، استنبول ١٩٣٠ الملجد رقم ٢ في هذه السلسلة.

ب- كتاب «المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط»، المجلد رقم ٣ في السلسلة.

٢- من المهم أنه شرع في كتابة تاريخ الشعوب الإسلامية ليكون جزءاً من مجموعة هردر التي عنوانها «تاريخ الشعوب القائدة» وقد أراد أن يستعرض فيه نتائج الأبحاث الجزئية في هذا الميدان ابتداءً من شخصية النبي محمد ﷺ ورسالته وحتى العلاقة الثقافية بين الغرب والشرق في العصر الوسيط، وتوقف هردر كما توقف برتزل عن إتمام كتابه.

٣- كتب بحثاً بعنوان: «محمد بوصفه شخصية تاريخية»[١].

---

(١) الموسوعة، بدوي ص٥٤.

المبحث السادس عشر

بطرس المحترم (الفرنسي)

أول من أخرج ترجمة للقرآن الكريم -بطرس المحترم- (الفرنسي) (١٠٩٢-١١٥٦).

١- راهب ولاهوتي، التحق في الدير وتنقل في أديرة متعددة فصار رئيساً لدير كلوني.

٢- في سفرته الثانية إلى إسبانيا (١١٤١) عني بالمسيحيين الكاثوليك (المستعربين) وظن أنه يخدم المسيحية بترجمة القرآن إلى اللاتينية، ولجأ إلى مدرسة المترجمين من العربية إلى اللاتينية في طليطلة التي أنشأها ريموندو أسقف طليطلة، وكلف بهذا العمل بطرس الطليطلي وشخصين آخرين ذوي معارف عامة هما هرمن الدنمارشي والقس الإنجليزي روبرت كنت، وأشرك معهم عربياً مسلماً اسمه محمد لمراجعة الترجمة على النص الأصلي، أو أن يترجم من العربية إلى الإسبانية الشعبية، ثم يتولى الآخرون الترجمة، وأشرك معهم سكرتيره الخاص بطرس لمراجعة النسخة اللاتينية لغوياً وأنجزت سنة ١١٤٣ وقد أجزل بطرس المحترم لهم العطاء.

٣- لقد طبع ونشرَ هذه الترجمةَ وألحق بها بعض الوسائل المتعلقة بالنبي والقرآن والإسلام تيودورس ببلياندرس في بازل (سويسرة) سنة ١٥٤٣، وهي أول ترجمة ظلت معتمدة حتى نهاية القرن السابع عشر.

٤- قام بطرس المحترم بتأليف كتاب في الرد على الإسلام واعتمد في قراءةِ ترجمةِ القرآن وتسجيلِ المسائل للردِّ عليها وفق مخطط محدد وذلك سنة ١١٤٣ وعول على سكرتيره «بطرس بواتيه» وأحد المخططات كان يتناول ما يلي:

أ- حفظ اليهود والنصارى لكتبهم.

ب- حياة النبي محمد ﷺ والقرآن للطعن فيهما.

جـ- خلو حياة النبي محمد ﷺ من المعجزات ويتناول في ذلك النبوات.

د- يستمر في المطاعن وادعاء عدم أصالة ما ذكره[1].

(١) الموسوعة ص٦٨-٦٩.

المبحث السابع عشر

المستشرقون في روسيا والدراسات القرآنية

يظهر لنا من دراستنا لكثير من المستشرقين الروس أنهم لم يكن لهم ذلك الاهتمام بالدراسات القرآنية والسنّة النبوية على وجه الخصوص والإسلام على وجه العموم ولهذا نجد معظم الدراسات عندهم إنما كانت في أغلبها عن اللغة العربية وآدابها، كما لم أقف على دراسة خاصة عن النبي ﷺ كما أننا وجدنا بعض الاهتمام بترجمة القرآن الكريم أو بعض الدراسة عن الإسلام في عهد القيصر (بطرس الأكبر) لما كان عليه من العلاقة بينه وبين تركيا على عهد الخلافة الإسلامية - زمن السلطان عبد الحميد - رحمه الله تعالى ويرى بعض الباحثين (أن بداية الدراسات العربية المنتظمة ونشأة مدرسة علمية مستقلة ابتداء من العقود الأولى للقرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فكان هناك يجري ما يمكن أن نسميه بادخار المعلومات حول البلاد العربية ولغتها بوجه خاص تلك المعلومات حول البلاد العربية ولغتها بوجه خاص تلك المعلومات التي توافرت لدى أجدادنا منذ القدم حيث نجدها حتى في المخطوطات الروسية الراجع تأليفها إلى القرن العاشر).

ويظهر أن بطرس الأكبر وجد من الأفضل اللاستفادة من العلوم الكثيرة التي دونت باللغة العربية لذا فقد أرسل (النبلاء الشبان إلى بلاد الشرق بهدف تعلم اللغات كما أنجز في نفس الفترة أحد المؤرخين الروس عملاً كبيراً خاصاً بتركيا والدين الإسلامي ولم يكن من باب الصدفة أن يوجه بطرس الأكبر اهتماماً بالغاً نحو الإسلام إذ كانت مصالحه وخططه السياسيّة والحروب الطويلة التي دارت بين روسيا وتركيا في تلك الفترة التاريخية تجبره على ذلك) وكان من ثمرة هذا الاهتمام.من بطرس الأكبر أن أمر بترجمة القرآن الكريم فصدرت أول نسخة كاملة مترجمة للقرآن الكريم في بطرسبورغ، عاصمة روسيا في بداية القرن الثامن عشر.

والذي يظهر لي أن أكثر الدراسات الروسية الاستشراقية منصبة على الدراسات العربية والدراسات المتعلقة بالأقوام المختلفة التي يمكن أن تكون الدراسة عنهم سبباً في استغلال قضيتهم لبث الفكر الماركسي في تلك البلدان، فمن ذلك دراسة خاصة عن الأكراد وأصلهم وكذلك عن البربر في الجزائر وقل مثل هذا في الأقوام الأخرى كما يهتمون بقضايا الفرق الإسلامية وأكثر ما يهتمون بالحركات الإلحادية والمنحرفة وإفضاء التحريرية والتقدمية عليهم، من ذلك حركة القرامطة وبابك الخرمي وغيرهم، ولهذا وجدنا أكثر اللذين تخرجوا من العرب والمسلمين كانت بحوثهم في هذا المجال، ولهذا نهجت سوريا هذا النهج فأدخلت في المنهج الثانوي الدراسي حركات القرامطة والخرمية والبابكية وتسميتها بالحركات التقدمية والتحريرية. . .

الفصل الخامس

المستشرقون والاقتصاد الإسلامي

المبحث الأول

النظرات الأستشراقية المتعددة

لقد نظر المستشرقون إلى القرآن الكريم في نظامه الاقتصادي نظرات مختلفة وفقاً للأهداف التي يهدفون إليها حباً في البحث والمعرفة أو كرهاً للإسلام بإلصاق تهم الجمود والتعصب، وبين هؤلاء من يجهل حقيقة النظام الاقتصادي في الإسلام لعدم قدرته معرفة ذلك النظام، وبهذا قلما تجد منهم من يستطيع أن يعطي صورة صادقة لنظام االإسلام الاقتصادي وإعطاء مقارنة علمية عقلانية بين هذا النظام والنظم الاقتصادية الأخرى، ولهذا نجد بعضهم يبحث هذه المسألة ويشير إلى بعض جوانبها. من هؤلاء من قارن بين الإسلام والرأسمالية فهو يقول: (وقضية العلاقة بين الرأسمالية والإسلام قد ناقشها المسلمون والمستشرقون ورجال الاقتصاد والمؤرخون الأوروبيون معاً. ولم يكن هذا نقاشاً في الفراغ فالمسلمون - تحت سلطان الإيمان أو القومية أو كليهما معاً - كانوا يحرصون على أن يثبتوا أن ميراثهم الديني لا يحول أبداً دون الأخذ بالمناهج الاقتصادية الحديثة والتطورية[1] أو أن هذا الميراث موجهٌ بطبيعته نحو العدالة - الاقتصادية والاجتماعية[2]. أما العلماء الأوروبيون، فالذين ينظرون منهم إلى الإسلام نظرة الود

---

(١) راجع في هذا الاتجاه آراء المصلحين الاجتماعيين المصريين، محمد عبده ومحمد رشيد رضا، ولاسيما في مجموعة مجلة «المنار» وكتاب «الأستاذ الإمام».

(٢) هذا الاتجاه يمثله العالم الباكستاني محمد حميد الدين كذلك يمثله كل أدب الجماعة الإسلامية في مصر، وأبرزه رسالة «نحو النور» و «اشتراكية الإسلام» للدكتور مصطفى السباعي.

أخذوا أيضاً بواحد من هذين الرأيين[١]. بينما حاول الكارهون له منهم (ومنهم جحفلٌ من الدعاة اللذين لا يؤيدهم أي علم) أن يثبتوا أن الإسلام إذ يمنع من أية مبادرة اقتصاديه تقدمية محكوم عليه بالجمود والقعود[٢] أو أنه (في تفسير متأخر) يدفعهم بالحتم إلى تحالف شيطاني مع الشيوعية الفاسدة المفسدة[٣] وفي الحالتين يقضي بمحاربة هذه الشعوب حرصاً على تقدم المدنية بصورة عامة.

ولنلاحظ أن كل هذه المواقف على تناقضها البالغ تستند جميعها إلى هذه الفرضية القبلية الضمنية: وهي أن المجتمعات - أي الناس في مصر ما ومنطقة ما- تلتزم دائماً بعقيدة ذات صبغة فوقية وتتقيد بتعاليمها وما توحي به هذه الظروف ضمنياً إليها من أساليب تفكير، وهذه الفرضية القبلية التي قد لا يعي وجودها أكثر أصحاب تلك الآراء تدخل الفساد والبطلان - كما يبدو لي - على موضوع النقاش نفسه[٤].

---

(١) من هؤلاء «لويس ماسينيون» (الذي تقلب في مواقف متناقضة) و «جان بول رو» و «جان ارستروي» و«جاك بيرك»

(٢) أبرز من قال بهذا الرأي «دنست زينان» و «رينه شارل».

(٣) راجع مجموعة الشرق الأوسط في «مرحلة الانتقال» لندن ١٩٥٨ومنها مقال عن «وحدة العرب وخلافاتهم » بقلم هانس توتش وآخر عن «الجامعة الإسلامية والشيوعية » بقلم نبيه أمين فارس. وعلى هذا فإن الأمة الإسلامية أمة عمل وحضارة وجهاد ومجاهدة وأن ما وصل إليه المسلمون من الحضارة العلمية الإنسانية على عهد هارون الرشيد رحمه الله تعالى وما وصلت إليه حضارة الأندلس في أعلى مراتب العلم مما كان سبباً في قيام الحضارة الغربية يشهد كما ذكرناه، ومع هذا نجد بعض المستشرقين يتهمون المسلمين بالكسل والجمود والتخلف ويصفون الغرب بالعقل والجد والاجتهاد، ومثل هذا الاتهام يردده كثير من المستشرقين ويهدفون فيه إلى أهداف سيئة حيث يجعلون لهم الصدارة والوصاية على العالم الإسلامي لأنهم أهلُ العقل والعلم والعمل ويرون في المجتمع الإسلامي قصوراً وتخلفاً وانحطاطاً فينسبونه إلى الإسلام كما قال الشاعر:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه يَصُدُّ ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت أوائله في عهدها المتقدم

(٤) الإسلام والرأسمالية، مكسيم رودنسون، ترجمة نزيه الحكيم، دار الطليعة، بيروت، ط١، كانون الثاني ١٩٦٨، ص٣٣، وسنرمز له ب(رودنسون).

المبحث الثاني

المستشرق مكسيم رودنسون(١)

أ- القرآن وعلم الاقتصاد:

فلنبدأ بالقرآن كلمة الله والمرجع الرئيسي الذي لا يحتمل شكاً ولا نقصاً «مبدئياً على الأقل لأن بعض آياته ناسخ لبعض » والقرآن بالطبع ليس كتاباً في الاقتصاد السياسي، ومن العبث أن نبحث فيه عن تأييد الرأسمالية أو إدانة لها بوصفها نظاماً اقتصادياً، فهل نحن واجدون فيه على الأقل أحكاماً تتصل بالمؤسسات الاقتصادية التي تعتبر ذات طبيعة رأسمالية أو تؤلف أسس الوضع الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي أو عناصره.

إن من الواضح كبداية جواباً على ذلك أن القرآن ليس عدواً للملكية الخاصة ما دام - مثلاً - ينظم أحكام المواريث؛ بل هو ينهى عن الاعتراض على ما قد يكون هناك من تفاوت(٢) مكتفياً بصب غضبه على ما اعتاده المترفون من كفر بالنعمة منذراً

---

(١) «مكسيم رودنسون» مستشرق وعالم اجتماعي فرنسي ولد في باريس ١٩١٥ وأتم دراسته فيها ثم قضى سبع سنوات في الشرق الأوسط أستاذاً ثم موظفاً في مصلحة الآثار في بيروت، وهو الآن مدير للدراسات في المدرسة العلمية للدراسات العليا في جامعة السوربون حيث يعلّم الأثيوبية والحميرية القديمتين ويحاضر في التاريخ البشري للشرق الأوسط، وهو أحد المناضلين التقدميين المعادين للاستعمار، وله - بالإضافة إلى مجلة الشرق الأوسط - التي كان يديرها، دراسات عديدة عن الشرق المعاصر والتاريخ الثقافي والبشري للعالم الإسلامي والتاريخ الإفريقي وعلم الاجتماع واللغات السامية كما أن له كتاباً ممتازاً عن «حياة محمد» يعيد النظر فيه الآن تمهيداً لإعادة طبعه وينتظر أن يصدر له في العام القادم كتاب عن «اثنولوجية الشرق الأوسط» وكتاب آخر عن «الإسلام والإشتراكية» وهو بالإضافة إلى موقفه الراهن ضد العدوان الإسرائيلي الأخير وضد الصهيونية العنصرية بوجه عام، كان قد زار القاهرة عام ١٩٦٤، واشترك في «الندوة العالمية لاتحاد طلاب فلسطين »، المصدر السابق، ص٥-٦.

(٢) المصدر السابق ص٥/٦.

بأن ثروتهم لن تغني عنهم يوم الحساب ومشيراً إلى أنها تفتنهم عن تقوى الله فهل تراه يستثني من ذلك ملكية وسائل الإنتاج؟ لا بل هو يتحدث عن الإجازة كمؤسسة طبيعية لا اعتراض عليها وكثيرٌ جداً من آيات القرآن يتحدث عن أجر الإنسان عند الله، وهو يصف لنا مشهد المديني وهو يفاوض موسى على العمل لديه راعياً مأجوراً كما إن إصلاح جدار متهدم يستحق الأجر كما يستحق مثله الرسل ومحمد معهم وهم في ذلك لا يسألون على تبشيرهم أيّ أجر.

ب- الإسلام يحث على العمل والتجارة وينهى عن الغش والخداع:

إن الإسلام يرغب في الزهد ويحذّر المؤمنين من مغبّة حب الدنيا والركون إليها واتخاذها غاية في الحياة واتخاذ كافة الوسائل للحصول على المال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] ويأمر أتباعه بإعطاء حقوق الله والناس والمال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧] ويحث على العمل حتى يوم الجمعة الذي هو يوم تغلب عليه العبادة في صلاة الجمعة والاستعداد لها بالاغتسال والتطهر والتطيب والتزين فيها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وبهذا وبغيره يفترق الإسلام عن بقية الأديان السماوية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية فيقول رودنسون:

«ومن الأديان ما تُزَهِّدُ نصوصه المقدسة بالنشاط التجاري على إطلاقه داعيا تابعيها إلى الاتكال على الرب في توفير ما هم بحاجة إليه كل يوم أو مستقبحة لديهم - على وجه الخصوص - سعيهم وراء الكسب، على أن من المؤكد أن هذا ليس موقف القرآن الذي ينظر بعين الرضا إلى الفاعلية التجارية مكتفيا باستنكار أساليب الغش والخداع وبالأمر بترك المبايعات إذا كانت في بعض أوقات العبادة[١] فالقرآن في التعبير الأمين لعالم إسلامي معاصر هو (محمد حميد الدين) لا يكتفي بأمر المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا (سورة القصص ٧٧) بل يضيف أيضاً أن من الصواب الجمع بين العبادة وبين الحياة المادية والتجارة حتى في موسم الحج ويذهب إلى تسمية الربح من التجارة فضلاً من الله ونعمة»[٢].

---

(١) رودنسون ص٢٦.

(٢) نفس المصدر ص٦٢.

وبعد أن تحدث عن النصوص من القرآن والسنة وما حدث من وقائع في التطبيق العملي وآراء الصحابة في ذلك وما ذكر من آراء وقصص ثم قال: (نحن هنا أيضاً لا نستطيع أن نميز على وجه الدقة بين التاريخ والأسطورة في هٰذه الصورة لأبي ذر»)[1] .

قال: (خلاصة القول إذن أن أقصى العدالة التي كان يبتغيها أولئك المسلمون الأكثر حرصاً على الولاء للمثل الأعلى القرآني) كان يتمثل في الملامح التالية:

دولة تحكم وفق المبادىء الموحى بها من الله، وتعامل جميع المؤمنين بالتساوي تجاه الشريعة السماوية، وتحقق في قلب الجماعة الإسلامية تكافلاً واسعاً على حساب المحظوظين ولمصلحة الفقراء. وهذا هو المثل الأعلى الذي حاولت الحركات الإصلاحية والثورية الكثيرة في التاريخ الإسلامي أن تحققه أكثر من مرة[2] .

وهذا الإقرار يمثل وثيقة تاريخية مهمة من عالم اجتماعي واقتصادي ماركسي كبير في حين أن الإسلام أفضل نظام اقتصادي يحقق الأهداف السامية التي ينشدها الإنسان ويدعو إليها قادة الإصلاح وزعماء الفكر في العالم الإسلامي بل في العالم أجمع، وإنما يكون ذلك إذا طبقت تعاليم الإسلام وأنظمته عن إيمان وصدق واحتساب لله وطلب رضاه. فلقد كان المجتمع الإسلامي في أحواله الاقتصادية حتى بعد الراشدين قد ضرب أروع الأمثال وأكرمها فقد وصل الأمر في زمن عمر بن عبد العزيز إلى أن يكتب إليه أحد الولاة يعلمه بأن أموال الزكاة ليس هناك فقراء يأخذونها. وأعتقد أن مثل هذا المجتمع يتصف أهله بالقناعة والكفاية والتعاون والمحبة والتكافل الاجتماعي بما لم نجده ولم نسمع ولم نقرأ عنه في أي مجتمع من المجتمعات القديمة التي سبقت الإسلام... والحديثة التي أعقبته. ولسنا ندعي أن المجتمع الإسلامي قد ساده النظام الاقتصادي نظرياً وعملياً في كل العصور الإسلامية.

---

(١) نفس المصدر ص٦٣.

(٢) نفس المصدر ص٦٥-٦٦.

وقد عنون رودنسون لذلك فقال: (أثر العقيدة الإسلامية بصورة عامة على الصعيد الاقتصادي) حتى الآن درسنا النظرية الاقتصادية في الإسلام كما عبّر عنها القرآن والسنّة وأقمنا الدليل على أنها لم تدن مبدئياً ولا أعاقت عملياً نموّ ما سميناه هنا القطاع «الرأسمالي» في الاقتصاد. أما الآن فينبغي لنا أن نخطو خطوة أخرى، ذلك أن قطاعاً رأسمالياً من نفس الطراز قد وجد في أوروبا الغربية في العصر الوسيط ثم نما إلى أن أعطى ما يدعى وفقاً لاختلاف المدارس الرأسمالية الحديثة أو بالوضع الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي. ولكن مثل هذا النمو لم يحدث في البلدان الإسلامية ولئن حدث ابتداء من القرن التاسع عشر فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه إنما جاء بتأثير خارجي، ترى (أيرجع هذا القصور إلى طبيعة الدين الإسلامي أو بصورة أعم إلى طبيعة الأيديولوجية الإسلامية في العصر الوسيط؟ هل كانت هذه الأيديولوجية أقل من أيديولوجية أوروبا المسيحية ملاءمة لنمو عن هذا النوع ؟).[١]

ويعقب على هذا مبيناً خطل وخطأ الرأي الذي ينسب إلى الإسلام سبب التأخر والانحطاط الاجتماعي والاقتصادي ويدلل على ذلك بأدلة واضحة قاطعة (فإن هذا في الواقع هو ما يزعمه وأي رأي مبتذل واسع الانتشار يلح بوجه خاص على أن المسلمين يتصفون بتكامل بليد، مستند إلى ما يرى أن العقيدة تشيعه من إيمان بالقضاء والقدر كما يلح على أن هذا التكامل الجبري هو نقيض روح المبادرة لدى الأوروبيين سواء اعتبرت هذه الروح وراثية أو نظر إليها على أنها ثمرة المسيحية بصورة عامة أو وليدة هذه أو تلك من العقائد المسيحية الخاصة وهنا أيضاً لعب «ماكس ويبر» الدور الرئيسي في وضع نظرية تأخذ بهذا الرأي وفي تقنينها ودعمها بالحجج العلمية)[٢].

---

(١) رودنسون ص١٣١.
(٢) المصدر السابق ١٣١- ١٣٢.

ثم يقول:

(ليرى «ويبر» أن الذهنية الجماعية الأوروبية تتميز بدرجة عالية من العقلانية وهو يتردد في تحديد منشأ هذه الظاهرة ولكن كان يفترض في استحياء أنها قد ترجع إلى أسباب -- بيولوجية - أي عنصرية فهو يقف عند الافتراض خشية الانزلاق في هذا المنحدر ولكنه يعدد مظاهر هذه العقلانية. ففي أوروبا، وأوروبا وحدها يجد المرء دولة عقلانية قائمة على جهاز من الموظفين المتخصصين وعلى قانون موغل في العقلانية هو القانون الروماني الذي صاغ (الفكر الحقيقي الصوري) على حساب الفكر الحقوقي المتجه نحو المبادىء (المادية) كمبادىء المنفعة والإنصاف، وفي أوروبا لا يرى المرء إلاّ الحد الأدنى من العوامل المعيقة للتطور الرأسمالي عوامل الاتجاه السحري للتفكير وبعض المصالح المادية والعقائد السلفية المبنية على الدين أو على الأخلاق. ثم يقول (واذا كان الأمر كما ذكرنا فإن مجرد وجود من يقول بهذه الآراء يفيض على الدارس أن يتعمق في أوروبا العقيدة الإسلامية هي حقاً تعوق الفكر عن الاتجاه العقلاني؟ وهل تشجع على التفكير السحري والتواكل الجبري؟ وهل هي أكثر إعاقة لازدهار الرأسمالية في معناها الحديث عن العقائدية المسيحية في العصر الوسيط ؟ ويبدو من صواب الرأي - لأسباب تتضح للقارىء أن ندرس العقائد الإسلامية من هذه الوجهة على صعيدين: صعيد العقيدة القرآنية وصعيد العقيدة الوسطية بعد القرآن وسنكتفي طبعاً بالخطوط العامة)[1].

جـ- (العقيدة القرآنية والاستدلال العقلي):

القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكاناً جد كبير. فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين، بل أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحي نفسه هذه الظاهرة الأقل اتساماً بالعقلانية في أي دين الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور وعلى

(١) روبنسون ١٣٢- ١٣٣.

خاتمهم محمد يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان فهو في مناسبات عديدة يكرر لنا أن الرسل قد جاؤوا بالبينات[1] فإذا تساءلت: ما الذي يضمن صحة الدلالة في هذه البينات بدا لك أن هذه الضمانة - لدى محمد - تكمن في معايير من التلاحم الداخلي من التوافق الجوهري بين مختلف ما أنزل على محمد نفسه يضمنه أنه متماثل جوهريا مع الوحي الذي أنزل على غيره من قبل والذي يبدو له أمراً وثقه التاريخ. وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتو بوحي مثله[2] وحي يحمل نفس الإلهية شكلا ومضموناً أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أنزل على موسى وعلى محمد (القصص٤٩) فإذا لم يقبلوا بهذه المعايير ففي المستطاع اللجوء إلى محاكمة تماثل «الرهان» المعروف لدى «باسكال» وذلك هو ما يفعله « مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه »[3] دفاعاً عن موسى ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[غافر: ٢٨].

والقرآن ما ينفك يقد البراهين العقلانية على القدرة الإلهية: ففي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتوالد الحيوان ودوران الكواكب والأفلاك وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوع رائع التطابق مع حاجات البشر ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وأقوى الأمثلة النموذجية على هذة المحاكمات نجده في دحض ناموس التثليث المسيحي فالقرآن يرفض هذا الناموس استناداً إلى ما كان محمد يعتقد أنه التاريخ وإلى ما ينسب للمسيح ذاته من قول ينفي به عن نفسه صفة الألوهية، وليس هذا فحسب بل إن

---

(١) يقول مثلا عن يوسف: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾[غافر: ٣٤] وكذلك راجع سورة البينة

(٢) ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٨]

(٣) الإسلام في تعريف القرآن الكريم لا يبدأ بمحمد فكل الرسل الحقيقيين منذ آدم وكل الذين اتبعوهم كانوا مسلمين أي موحدين مؤمنين يعبدون الله.

المسيحيين مدعوون إلى أن (لا يغلوا) في دينهم فلا يقولوا بما لا يعقل ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١] أو ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ ولكنهما كانا بشراً كالآخرين ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

ولذلك ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وبعدها يتحدث عن العقل «العقل» واستفاضت الآيات القرآنية في الحث على استخدام العقل في البصيرة والفهم والحكم على الأمور والقضايا العلمية والفكرية والدينية فيستدل على أن الإسلام دين العقل ويقضي ببطلان الرأي الذي يتهم الإسلام بالجمود والتخلف الحضاري واللاعقلانية فهو يقول «وفعل» «عقل» (بمعنى: ربط الأفكار بعضها ببعض والحاكم فيهم البرهان العقلي) يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة. ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكاري وكأنه لازمة: «أفلا يعقلون؟» والكفار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلىدعوة محمد يوصفون بأنهم قوم لا يعقلون لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة وهم بهذا عجماوات وأنعام بل أكثر عجمة، ولذلك كان الأب (هنري لامس) على حق في قوله أن محمداً «ليس بعيداً عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفكر البشري » فالكفار - ككل المحافظين في كل العصور - يقولون أنه يكفيهم أن يتبعوا ما كان عليه آباؤهم، ومحمد ككل المجددين تستثيره هذه الحماقة، أفلا يدركون أن آباءهم، قد أعملوا فكرهم قبل أن يضعوا قواعد حياتهم.

ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم، ولئن كان يرسل الآيات الدالة على وجوده وإرادته وأهمها الآيات المنزلة على نبيه محمد، فلكي يفهمها الناس ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم ونرى الله يقدم البينة الفاصلة ثم يختم البرهان بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]. ولما كان الإنسان حراً فأقصى ما يسع الله فعله هو أن يضع أمامهم هذه الآيات، هذه البينات التي ستكون حاسمة قاطعة بمجرد أن يعملوا حواسهم وملكة المحاكمة فيهم، فإن فعلوا فلعلها تهديهم إلى الإيمان فإن اهتدوا كانوا «عالمين» وكان لهم نصيب مما جاء به الرسول من العلم، هذا العلم الذي هو نقيض الجاهلية والجهل جهل الإنسان البدائي قبل الوحي الذي يأتي بالحق والصدق، وأما من ظل على كفره فهو الجاهل بإرادته ذلك الذي ﴿ تَرَوْا يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠] ولأمثال هذا يجب أن يقال: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١٤٨].

وبعد أن يذكر النزعة الإسلامية العقلانية والدلالة عليها يذكر ما يتوهمه البعض من نهج عقلي عند الإغريق والديانات الأخرى يقول القولة الحقة الصادقة (في مقابلة هذا «تبدو العقلانية صلبة كأنها الصخر »؟).

١ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يعقلون وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يونس: ٤٢-٤٣].

٢ -﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

٣- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٤- ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

٥- ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٩]، ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يفسقون ☆ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤-٣٥]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

٦- ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

٧- ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٨- ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ☆ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠-٦١].

٩- ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

١٠- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٢] و﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

ثم يعرج على قضية القضاء والقدر وما فهمه البعض جهلاً وقصوراً أو حقداً أو عناداً بأنه يمنع من النمو الاقتصادي والنشاط التجاري والعمل المثمر ويستخلص بعد دراسته إلى القول: «وما يهمني في حديثي هنا هو التدليل على أن فكرة القضاء والقدر تلك المخففة هنا وهناك والتي تجد ما يناقضها في آيات أخرى لم تكن أبداً لتعميق

العقيدة القرآنية عن الحث عن العمل، فإذا كان القرآن يدعو المؤمن إلى الفضائل كالعدل بين الناس واحترام العهود والتعفف والاستقامة وإلى البر بالوالدين والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى وإطعام المسافرين فمن الواضح أن ذلك يعني أنه يعترف للإنسان بقدر من حرية العمل أو الأعمال ولو في الظاهر على الأقل. بل أن هناك بعضاً من وجوه النشاط الاجتماعي لا علاقة لها بالتقوى والبر في ذاتهما ينصح بها القرآن أو على الأقل يسمح بها ويعتبرها من أمور الحياة الطبيعية فالتجارة الشريفة مثلاً يتكرر الحديث عنها كنشاط طبيعي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ منكم﴾ [النساء: ٢٩]. وإذا كانت ثمار الأرض تمجد في كثير من المواضع كأمثلة لجلال ما صنع الله ولا سيما الحبوب والفاكهة والمراعي فذلك يعني بالضرورة تشجيعاً للزارعين والرعاة على العمل استزادة من هذه العطايا الإلهية: والدعوات إلى الجهاد المقدس أليست حثاً على نوع آخر من العمل؟ ألا يوصي القرآن بالشجاعة وبالصلابة أمام العدو والصمود في المعركة ؟»﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد: ٣٥]، وصحيح أن الله يعد بتقديم المعونة.. ويقدمها فعلاً وأنها عامل جوهري في النصر ولكنها لا تعفي الإنسان أبداً من أن يكافح بما بين يديه من وسائل إنسانية، انظر كيف يعين الله داود الرسول الحدّاد في عمله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الحديد☆ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ ﴾ [سبأ ١٠-١١].

في كل هذا لا نجد أية دعوة للقعود انتظاراً لعون الله. وصحيح أن في القرآن آيات عديدة تحذر من فتنة متاع الحياة الدنيا وما تمثله من سراب زائل وأن الصوفيين المتأخرين رأوا في هذه الآيات دعوة إلى الزهد وإلى الابتعاد عن الشؤون الدنيوية والانصراف بكليتهم إلى البحث عن الله كما أنه لا يستبعد أن يكون بعض معاصري الرسول أنفسهم قد انتهوا إلى مثل هذا الاستنتاج أو أن تكون هذه النصوص قد جاءت تدعم نزعاتهم

السابقة ولكن المؤكد أنها لم تكن كذلك لدى محمد - فالبرهان على قوة الله - وعلى ان أشياء هذه الدنيا عرض ثانوي إنما يعني حض المؤمنين على أن يضعوا الولاء الفعال للجماعة فوق هموم النجاح الشخصي ويعني إقناعهم بحتمية النصر الذي يدعمه مثل هذا التضامن وإقناع الكافرين بالانضمام إلى هذا التيار الذي لا يقاوم.

وحياة الرسول الزاخرة بالنشاط دليل ساطع على أنه إذا كان قد خامره أحياناً بعض النزوع إلى الاستسلام والتوكل على الله فهو لم يخضع قط لهذا الإغراء، بل تغلب سريعاً عليه بل إن الله نفسه في القرآن يأمر خادمه الأمين بالعمل: (إقرأ. . .)، (قل. . .) يعني بشّر، اكسب الأنصار، حرك الأفكار، وهو يأمره أن يقول للذين لا يؤمنون: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩] وكذلك هو يأمره أن يحاربهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

ولكن تكررت دعوته إلى الثقة بربه والتوكل عليه في نجاح مسعاه فمن الجلي أن هذا لا يعني أبداً أن الرب يدعو خادمه إلى التواكل والقعود[١].

---

(١) هذه الحقيقة تناولها بالتفصيل كتاب كان له دور كبير في إيقاظ المسلمين على واقع العصر، هو كتاب شكيب أرسلان: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» طبع القاهرة ١٣٤٩ وفيه استشهاد بالآيات التي وردت فيها كلمة «العمل» على مختلف صورها مع مقارنة ذلك -كما أفعل أنا- بما يمكن أن يسمى «جبرية الإنجيل» كذلك كان هذا هو موقف المصلح الكبير الإمام محمد عبده وكثيرين غيره. ومن الواجب أن نؤكد ضلال اولئك الذين لا يعرفون إلاّ القليل عن الإسلام ثم يزعمون أن مفكري الإسلام المحدثين يحمّلون نصوص القرآن أكثر من مقاصدها تأييداً لموقفهم ضد الاستسلام للقضاء والقدر - روبنسون ص١٥٣- ١٥٥.

الفصل السادس

مناهج المستشرقين في السنة النبوية والتاريخ الإسلامي

المبحث الأول

دراسة تحقيقية في منهج المستشرقين في السنة النبوية

نهج المستشرقون في السنة النبوية منهجا يتعلق بأمرين:

الأمر الأول: الحديث النبوي الشريف (النص) فلقد شككوا في صحة الحديث النبوي معتمدين ما يأتي:

١- إن الحديث لم يدون وقد نقل شفاها وهذا مما يوجب في نظرهم عدم صحة الأحاديث والمصيبة العظمى أن المستشرقين لا يتحرون المصطلحات التي عند علماء المسلمين، فالأحاديث كتبت عند بعض الصحابة (رضي الله عنهم) ولكن لم يأمروا العلماء بتدوينها لمصلحة عامة ولم يصدر أمر بالتدوين إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ. وإلا فقد كانت هناك صحف مكتوبة منها:

أ - الصحيفة الصادرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص وانها تحتوي ألف حديث.
ب - صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري التي يقول فيها قتادة بن دعامة السدوسي إنه يحفظها ويعتني بها أكثر من غيره.

٢- الوضع في الحديث: فقد أكثر الوضاعون من الحديث النبوي لأسباب ذكرها أهل العلم بالحديث وقد تحدث العلماء عن الوضع ووضعوا الضوابط الدقيقة التي تميز بين الحديث الصادق والحديث الموضوع مما يعجز كل علماء الغرب عن القدرة على تقليده والوصول إلى تلك الدقة العلمية فيه ولقد كانت لعلماء المسلمين تلك الجهود العظيمة التي أجزم أنها لم تدع حديثا موضوعاً إلا بينته.

٣- اتهام فقهاء المسلمين بتلفيق الأحاديث النبوية ووضعها وذلك لترويج آرائهم واختلاف الأدلة التي تسند تلك الآراء وهو أمر مخالف لما كان عليه فقهاؤنا من العلم والورع والتقوى مما لا يتناسب مع ما ذكره المستشرقون.

الأمر الثاني: يتعلق بالسند والرواة فإنهم قد طعنوا في السند والرواة على ما يأتي:

أ- اتهموا فقهاء المسلمين بوضع الأسانيد وتلفيقها.

ب- كرسوا بحوثهم على بعض الأجلّة من كبار الحفاظ وأئمة العدالة والضبط فشوهوا تاريخهم وألصقوا بهم ما ليس فيهم وأظهروا لهم صورة بشعة كاذبة كأبي هريرة والزهري وأبي حنيفة وقد رد على هذا كثير من العلماء المسلمين لكن الرد القوي الذي صدر من (ونسيفك) إذ تصدى للرد بنفسه على من زعم منهم ذلك الزعم وأثبت لهم فساده وجهلهم وسفه أحلامهم وبيّن لهم الدور الذي قام به أهل الحديث فذكر جهودهم بدراسة الحديث ونقده وصدق نقلته الذين اكتملت فيهم شروط الرواية فأجاد في ذلك وقد كان منهج المحدثين من العلماء فصار من نتائجه:

أولاً: معايير النقد للسند والمتن.

ثانيا: علم مصطلح الحديث.

ثالثا: تدوين الصحيح.

رابعا: كتب الكشف عن الرجال.

خامسا: كتب الكشف عن الموضوعات[1].

---

(١) مناهج المستشرقين د.عبد القهار العاني د. سعدون الشاموك ص٨٣-٨٤.

المبحث الثاني

المستشرقون والسيرة النبوية

إن التصور العام لسيرة الرسول ﷺ عند عامة المسلمين في البلاد العربية وغيرها هو تصور خاطىء مشوب بالشبهات التي أثيرت والتي تضمنت مناهج التربية والتعليم التي وضعت تحت إشراف وتوجيه المستشرقين والمبشرين الذين كان لهم السلطان التربوي والفكري في تلك البلدان إبّان الحكم الاستعماري الذي تقاسمت فيه الدول الكبرى بلاد العرب والمسلمين بعد سقوط السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى وانهيار الدولة العثمانية فتسلط على البلاد جيش الاستعمار بنوعيه: الجيش العسكري والجيش الفكري، والثاني كان أخطر على الأمة من الأول وقد استطاع الاستعمار بعد خروجه من بلادنا وذهاب أرباب الفكر الأوروبيين أن يربوا جيشاً فكرياً من أبناء البلاد الذين استهوتهم آراء المستشرقين وتخرج كثير منهم من المعاهد والجامعات الأجنبية وبُهروا بما يسمونه «المنهج العلمي في الغرب والشرق» فقد تمكنوا من إقناعهم بأحقية منهجهم وحياديته وأصالته، وارتضوا ذلك المنهج الذي ترتب عليه الانحراف في الفكر العام.

المبحث الثالث

كولسون وآراؤه في السنّة النبوية

أقواله :

١- إن الرسول ﷺ (لا بد من أن يكون قد واجه في أثناء حكمه بالمدينة كثيراً من المسائل التشريعية وبخاصة تلك التي تثيرها الأحكام القرآنية باعتباره الأمين على الوحي والمفسر لنصوص القرآن العامة والمجلة)[١] وهكذا وضعت السنّة بمثل تلك الأحكام الأساس الأول لقيام بناء قانوني مستمد من مبادىء القرآن الأخلاقية[٢] .

رأيه عن طبيعة تلك السّنة النبوية :

١- من العلوم عند المسلمين كما ورد في القرآن الكريم من أن السنة وحي من عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وما ورد من أقوال الرسول ﷺ المستفيضة منها قوله ﷺ «ما أخبرتكم به عن الله فلا أكذب أبداً، وما أخبرتكم به عن نفسي فإنما أنا بشر وأنتم أعلم بأمور دنياكم»، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

٢- أن التصور والخيال والحدس والظن بغير علم هو الذي يغلب على بعض المستشرقين الذين يريدون أن يطعنوا بالإسلام أو يعطوا صورة مهمة من مصادر الشريعة الإسلامية، فحين لا يستطيعون أن يفرقوا بين النص كالحديث النبوي مثلاً وبين الآراء والأحكام الفقهية المستنبطة عنه يجعلون كل ما ذكرناه سنةً، وهذا أيضا ناتج عن عدم

---

(١) في تاريخ التشريع الإسلامي، كولسون ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ٦٢-٦٣

رجوعهم إلى كتب علماء المسلمين ومحدثيهم في تحديد تلك المصطلحات، فلهذا نجده يقول: «إنّ السنة في القرن الثاني الهجري كانت تعني مجموع الآراء الفقهية المتفق عليها بين علماء مدرسة فقهية معينة ويسميها «سنّة المدرسة» فهي مجموع الآراء والأصول المتعارف عليها في كل مذهب والذي يعمل رجال المذهب على عرضها ونصرتها »[1].

(ثم إن فكرةَ اتباع المأثور جعلتْ هذه الآراء الفقهية تنسب بعد قليل إلى أسماء محدودة من الشخصيات المشهود لها بالفضل والتقى؛ فعمر على سبيل المثال كثيراً ما يُذكر باعتباره المؤسس لسنّة المدينة، على حين احتل عبد الله بن مسعود مكانة مشابهة في الكوفة، وقد وصل الأمر بصيغته في النهاية إلى نسبة الرأي الفقهي إلى النبي ﷺ[2].

ويبدو لنا الخلط عند كولسون في النصوص السابقة إذ أن نظرية الإسناد إنما طبقت على الأسانيد صحيحها وضعيفها وموضوعها، وليس الأمر كما توهمه من وضع سنداً مرتباً للحديث، ثم مسألة أخرى أن النظر في أحوال الرواة التابعين وتابعي التابعين فقط، أمّا الصحابة رضي الله عنهم فقد أجمع علماء الحديث من المسلمين بعدالتهم ولا عبرة بمن شذّ أو خالف من أهل الزيغ فإن ذكره لعمر وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ليس في موضعه، ثم إن نسبة هذا الفقه للنبي ﷺ مما يرويه الصحابة رضي الله عنهم ولم يرفعوه إلى النبي ﷺ مما يسمى بالموقوف له قواعد وضوابط ثابتة فإن كان من أمر الغيب الذي لا مجال للاجتهاد فيه كان ذلك حكمه حكم المرفوع، وإن كان للاجتهاد فيه نصيب كان رأي الصحابي واجتهاده كما هو معلوم في كتب الحديث[3].

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق ص ٩٦.

(٣) انظر كتاب علوم الحديث، د. عبد الكريم زيدان. د.عبد القهار داود ص ٩٨. استناداً إلى كتب الحديث المعتمدة.

والغريب في أمر كولسون أنه، إما أنه يجهل الكتب والبحوث التي ألّفها وثبتها علماء الحديث في مسألة الوضع وأسبابه وطرقه حيث أُلِّـفَـتْ كتبٌ في تدوين الأحاديث الموضوعة، كما أُلفت كتب في موضوع الوضع وكيفية معرفة الحديث الموضوع وغير ذلك ككتاب «اللآلىء المصنوعة» للسيوطي، و «تنزيه الشريعة» لابن عراق و«الموضوعات » لابن الجوزي وغيرها. ونحن المسلمين نثبت أن الوضع في الحديث قد وقع وأن علماء الحديث لغَيرتهم على الإسلام وحِرْصهم على السّنة النبوية من التشويه والتزوير وضعوا علم الجرح والتعديل وأجازوه حفظاً للشريعة وحرصاً على نصوصها من أن تنالها يَدُ التحريف والتبديل. .أو أنه يتجاهل هذا الأمر.

وبهذا فهو يقول: (أن أهل الحديث تأييداً لمذهبهم في ضرورة اتباع ما تقرر من أحكام في القرآن بدأوا ينسبون كثيراً من القواعد والأحكام خطأً إلى رسول الله ﷺ وكانوا يضعونها في شكل قصص أو أخبار عما قاله «محمد ﷺ في فعله في مواقف معينة » وكان ذلك نتيجة اعتقادهم الجازم أن النبي ﷺ كان سيقضي في الأحكام التي نسبوها إليه حتماً فيما لو واجهته المشاكلُ التي وقعت لهم[1].

ولما كان ما قاله أمراً غير معقول. . . إذ كيف تكون السنّة النبوية كلها مروية كذباً عن الرسول ﷺ فقد أراد أن يأتي بعبارة يظن منها أنه منطقي وأنه ينهج نهجاً طبيعياً وأنه لا بأس أن يقول بأنه (قدراً من أحاديث الأحكام يحتفظ بأصل الأفعال والكلمات التي صدرت عن النبي ﷺ وخاصة في المسائل غير الخلافية (لكن) هذا الأصل الصحيح قد غشاة خليطٌ متراكم من مواد موضوعة مختلفة)[2].

ومما يدل على جهله بآراء أئمة الفقه وعلماء الأصول الذين اتفقوا جميعاً على أن السنة النبوية المصدر الثاني في الشريعة الإسلامية أنه يثبت في كتابه أن أول من أثبت اعتبار السنّة النبوية هي المصدر الثاني هو الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وقد ذكر ذلك في كتابه الأصولي «الرسالة» وغيرها.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩- ١٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٠-١٠١.

ومثل هذا سبقه به الإمامان أبو حنيفة ومالك رحمهما الله تعالى، فكلسون يقول: « إن اعتراف الشافعي بالسنة مصدراً مكملاً للقرآن في التعرف على الإرادة الإلهية هو أهم إسهام قدمه هذا الفقيه للتشريع الإسلامي.. وتمثل السنّة باعتبارها مسلك محمد ﷺ «الموُحى إليه من الله المصدر الثاني للفقه في منهج الشافعي، وكانت تستند أساساً في المدارس الباكرة إلى المرويات الخاصة بمدرسة معينه، وقد تطلع الشافعي بإحلال مفهوم السنّة النابعة من معين واحد محل الروايات المتداولة في الأمصار المختلفة فيما بينها باختلاف منشئها إلى اقتلاع سبب الخلاف بين المراكز الفقهية وبثّ الوحدة في النظر التشريعي. وباختصار، فإن الشافعي يذهب إلى أن هناك لوناً واحداً من المرويات هو الذي يصح أن يكون إسلامياً أصيلاً وهو في هذا لم يكن يقدم فكرة جديدة من كل جوانبها فقد كان هناك اتجاه متزايد لدى المدارس الفقهية الباكرة عموماً إلى ادعاء وجود أصل لمروياتها في مسلك النبي ﷺ وذلك بإرجاع نظرها الفقهي إليه. وقد استغل الشافعي هذا الاتجاه نفسه ليدعمه أصولياً ببيان كون السنّة وحياً إلهياً وليقرر فيما يتعلق بالشكل أن سنّة النبي ﷺ لا تثبتُ بوجه صحيح ولا تتحقق إلاّ بحديث مروي عنه»[١].

وقد عقب الدكتور محمد سليم العوا على ذلك فقال (إن من الغني عن البيان أن أحداً لا ينكر فضل الشافعي على علم أصول الفقه ولكن الفضل لا يزيد على كونه عبقرية الصياغة والتنظيم، فالشافعي لم يخترع أصولاً من عنده ولم يرفع دليلاً شرعياً إلى مرتبة الحجية لم تكن له قبله، وإنما جمع بما أتيح له من سعة المعرفة ودقة التتبع وتنوع الثقافة الفقهية الناتجة عن لقاء فقهاء الأمصار والسماع منهم ومناظرتهم وبظروف تكوينه العلمي والفكري بوجه عام جمعَ النظريةِ الإسلامية في استنباط الأحكام الشرعية في سياقٍ واحد وعرضها عرضاً جميلاً قوياً مقنعاً جعلَ العلماءَ بعده ينسبون إليه في وضع علم الأصول لا لأنه موجده من العدم أو مخترعه من الوهم، وإنما باعتباره أول من نَسّقه ورتّبه وَبَوّبَهُ،

---

(١) التاريخ ١٢٤-١٢٥.

والمغالاة في دور الشافعي عند - كولسون ومن قبله عند جولد تسيهر وشاخت -يترتب عليها إنكار وجود وحدة أصولٍ للاستنباط مسلّمة بين الفقهاء قبله - ولو صحّ هذا -(وهذا غير صحيح) لترتَّبَ عليه استحالةُ تفاهم هؤلاء الفقهاء وتناظرهم وتبادلهم الرأيَ في أكثر من موطن، وكل هذا كان واقعاً وهو مدوّن في كتب الفقه والتفسير والتاريخ وغيرها. وهو يشهدُ شهادةً قاطعة أن هؤلاء الفقهاء عرفوا الأصول واجتهدوا على أساسها واختلفوا في فهم نصوصها أو أساليب أعمالها، لكنهم لم يغفلوا عنها، ولم يجهلوا وجودها)[1].

---

(١) مناهج المستشرقين ج١ ص ٢٧٢- ٢٧٣.

المبحث الرابع

دراسة تحقيقية في منهج المستشرقين في التاريخ الإسلامي

لسنا ننظر إلى الدراسات الاستشراقية من حيث أثرها على أقوامهم فحسب لأن المسألة قد تهون، ولكننا نجد خطورة عظيمة في انسياب هذا المنهج في الشرق الإسلامي والتزام بعض المفكرين من أساتذة الجامعات وغيرهم لذلك المنهج حتى وجدنا أن المستشرقين الغربيين وجدوا في تلامذتهم وأتباعهم ما يغنيهم ويرضي رغباتهم ويحقق أهدافهم، ولهذا سبق أنْ قلتُ إني لم أجد فيما وصل علمي أحداً من أبناء المسلمين ممن تخرج في جامعات الغرب أو الشرق من لم يتأثر بالمنهج الأجنبي سواء في كلياته أو في بعض جزئياته - ولهذا وجدنا كثيراً من الباحثين يتحدث عن النبي محمد ﷺ وكأنه زعيم أو فيلسوف أو باعث حضارة وموحد أمة وليس نبياً مرسلاً.

(إن منهجية المستشرقين مهمة بالنسبة للتاريخ الإسلامي إذ إنها تَمَسُّ موضوعاً دقيقاً هو طبيعة التاريخ الإسلامي وجوهره، ومن ثم فقد أثرت على الطريقة التي كون المسلمون بها صورة لأنفسهم في سياق تاريخهم. والسؤال الذي يثيرحساسية أكبر هو «كيف حاول المستشرقون أن يؤثروا على مجرى التطورات في العالم الإسلامي عن طريق تطوير موضوعات ونظريات وفروض عديدة تتصل بالتاريخ الإسلامي التي برغم احتفاظها بالمظهر الأكاديمي تُخْفي في كثير من الأحيان دوافع وأهداف كامنة ترجع إلى الهيمنة على العالم الإسلامي والشرق بعامة من طريق الاعتماد القوي على النشاطات التنصيرية والاستعمارية والإمبريالية).

وتميزت الدراسات الاستشراقية للتاريخ الإسلامي بمميزات جعلتها تبعد الحقائق العلمية والثمرات الحضارية التي خلفها خلفاء المسلمين وعظماؤهم.

١- اعتمادهم على المصادر الضعيفة الواهية المنكرة ككتاب الأغاني وغيره.

٢- عدم إدراكهم لحقيقة المجتمع الإسلامي وأسس تكوينه.

٣- تقصدهم في تصَيّد الآراء الشاذة والروايات الضعيفة المنكرة وتركهم الآراء المُجمع عليها أو الغالبة.

٤- عدم أمانتهم في النقل.

٥- استعمالهم طريقة التمويه وبتر الرواية والأخذ منها ما يفيدهم.

٦- الافتراء والكذب أحيانا وإلصاق الأخبار ببعض الشخصيات القيادية في التاريخ الإسلامي.

٧- إظهار الحركات الهدامة وإبرازها بأنها تمثل حركة الحرية والديمقراطية كالباطنية والقرامطة والبرامكة والبهائية والقاديانية وغيرها ويصدق هذا على الاستشراق الغربي والشرقي.

٨- محاولة تفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً بعيداً عن النزعة الروحية المخلصة لله التي يتسم بها قادة العرب والمسلمين في الفتح الإسلامي.

٩- النظر إلى الإسلام أنه دين قد أخذ تعاليمه وأنظمته من اليهودية والنصرانية وأن محمداً ﷺ لم يكن إلا مفكراً استقى أفكاره عَمَّنْ سبقه[١].

---

(١) يقول ماكدونالد: (لا يسعني إلا أن أعتقد هنا بأننا أمام حالة من حالات التكرار على لسان محمد وعلى نحوٍ غير مقصود بالمرة لعبارة من العبارات التقطتها ذاكرة اللاوعي لديه حينما كان في كنيسة مسيحية سمعها في أثناء صلاة مسيحية) مناهج المستشرقين ص ٣٨٩ عن كتاب ماكدونالد - جوانب إسلامية ص ٦٥١. وهذه هي الصفة الغالبة على اعتقاد الكثير من المستشرقين.

١٠- العمل على إبراز أحداث النزاع في التاريخ الإسلامي وترك الفترة التاريخية الحضارية المشرقة من أجل أن يؤكدوا على فرية يفترونها في أن التاريخ الإسلامي لم يكن إلا أحداث نزاعٍ وقتلٍ وتنافس على السلطة. ويريدون بذلك أن يوحوا إلى الشرق الإسلامي أن المسلمين لا يمثلون وحدة الكفاح ضد الكفر والاستعمار وأنهم فرق مختلفة ولا تجمعهم عقيدة التوحيد ولا يمثلون أمةً موحدة عبر التاريخ ولا يمكن أن يعيدوا الدور الذي بدأه الأجداد العظام.

المبحث الخامس

آرنولد توينبي ت ١٩٣٠

ادعى آرنولد دعاوي متعددة:

١- إن علماء المسلمين عملوا بكل ما يستطيعون من جهد وبحث لإثبات شرعية الخلافة الإسلامية وإظهار الأدلة من النصوص الشرعية والأدلة والبراهين العقلية على ذلك معتبراً ذلك أمراً مسبوقاً عند رجال الدين المسيحيين في العصور الوسطى.

٢- الاستعانة بالأحاديث النبوية لإضفاء الشرعية على تصرفات الخلفاء والحكام المسلمين في شتى العصور وقد كانت بعضها موضوعة على حد قوله.

٣- إيراد الأحاديث التي تقول بوجوب إطاعة الحاكم عادلاً كان أم جائراً، فإن كان عادلاً فله ثواب عدله عند الله وإن جار فعليه الوزر في الآخرة وللرعية ثواب الطاعة[١].

وقد خلص إلى أمرين اثنين:

أولهما: أن الخلافة الإسلامية وقد اعترف بها على هذا النحو كانت تمثل حكماً مستبداً يضع في يد الحاكم سلطة مطلقة بلا قيد فارضة على رعاياه طاعة خالصة لا تعرف التردد[٢].

ثانيهما: أن النظرية السياسية للخلافة تبدو بصفتها المعلنة في أن أي سلطة على االأرض هي إلهية المصدر فإن على الرعية الطاعة سواء (كان الحاكم عادلاً أم جائراً)[٣]

---

(١) مناهج المستشرقين ج ٢ ص١١٧

(٢) Arnold:The Caliphat p.7, 48..

(٣) Arnold p.49

تعقيب لأرنولد / استثنائي:

في مجال واحد كانت السلطة التحكمية الأوتقراطية للخليفة مقيدة فالخليفة بوصفه مسلماً ملتزم بالخضوع للشريعة الإسلامية على قدم المساواة مع غيره من المسلمين وذلك تبعاً لكون هذه الشريعة مصدرها الوحي الإلهي الذي جاء لتنظيم السلوك الإنساني في شتى قطاعاته، الأمر الذي لم يدع مجالاً (في الإسلام) لذلك التمييز بين القانون الكنسي وقانون الدولة في المسيحية، فإنه كان من المفروض (من الناحية النظرية على الأقل) أن تكون إدارة الدولة (الإسلامية) على انسجام مع أحكام القانون المقدس[١] (الشريعة الإسلامية).

التحكم: عدم الالتزام بالمشروعية أي بقواعد النظام القانوني للدولة من جانب القائمين على سلطتها.

الاستبداد: الخروج على القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع والتي تقبع في أيديولوجياته التي انبثقت منها نظمه القانونية والسياسية.

أسباب وقوعه في الخطأ في تصوره للنظرية السياسية:

١- بدأ من تصور غير صحيح للمضمون الاصطلاحي لعبارة النظرية السياسية مما أدى به إلى الخلط بين تاريخ واقع الخلافة الإسلامية وبين الخلافة الإسلامية كنظام سياسي إسلامي.

٢- أنه لعدم تصوره للمضمون الفني الدقيق للفظتي «**الاستبداد**» والتحكم قد فوت على القارىء إدراك حقيقة نظام الخلافة بانتسابه إلى الإسلام في خاصته الكبرى المتمثلة في التزامه الصارم بمبدأ المشروعية الشرعية وهي:

---

(١) Arnold p. 53

١- التزام الخليفة المسلم بأحكام الشريعة فسلطته مقيدة بشريعة مصدرها الكتاب والسنة.

٢- التزام الرعية من المسلمين بالطاعة ما لم يؤمروا بمعصية «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

المبحث السادس

جب

١٨٩٥-١٩٧١م

مستشرق إنجليزي ولد في مدينة الإسكندرية (مصر) وتوفي في أكسفورد (إنجلترا)، وكان أبوه ناظر زراعة في شركة أبو قير لاستصلاح الأراضي، دخل جامعة أدنبرة وتخصص في اللغات السامية (العربية، العبرية،والآرامية). وفي سنة ١٩٢٢م حصل على درجة الماجستير من جامعة لندن، وكان آنذاك مدرسا للغة العربية.

وفي سنة ١٩٢٩ عين بلقب (أستاذ) في تاريخ العرب والأدب العربي في جامعة لندن، ولما توفي سير توماس أرنولد في سنة ١٩٣٠ خلفه على كرسي اللغة العربية في جامعة لندن، كما خلفه كمحرر بريطاني لدائرة المعارف الإسلامية، واستمر في كرسيه بجامعة لندن حتى سنة ١٩٣٧، حيث صار أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد ثم زميلاً في كليات سانت جون بأكسفورد وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٥.

وفي سنة ١٩٥٥ دعته جامعة هارفرد (في الولايات المتحدة الأمريكية) ليكون أستاذاً بها في كرسي (الأستاذية) وفي سنة ١٩٥٧صار مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط في تلك الجامعة. وفي سنة ١٩٦٤، تقاعد عن التدريس كأستاذ في جامعة هارفرد لكنه استمر مديراً لذلك المعهد وأصيب إصابة بالغة بالفالج لكنه شفي منه، وتوفي وهو مستمر على العمل في أكسفورد، سنة ١٩٧١م.

وقد وصفه أحد الباحثين (بأنه نال كثيراً من ألقاب التشريف التي لا يستحقها علمياً. والواقع أن -هاملتون جب- كانت شهرته فوق قيمته العلمية وإنتاجه أدنى كثيراً من الشهرة التي حظي بها لأسباب كلها بعيدة عن العلم) ولا ندري مدى انطباق مثل هذا

الحكم على هاملتون جب، ولعلنا في تتبعنا لآرائه نستطيع أن نعرف مثل هذه الأحكام وقد كانت دراساته وبحوثه في ثلاثة أقسام:

١- الأدب العربي.

٢- التاريخ الإسلامي.

٣- الأفكار السياسية الدينية في الإسلام.

أولاً: الأدب العربي:

أ- في سنة ١٩٢٦ أصدر كتيباً صغيراً بعنوان (الأدب العربي) «وهو كتيب صغير تافه إلى القراء الإنجليز، وقد أعاد طبعه منقحاً في سنة ١٩٦٣».

ب- وفي سنة ١٩٢٨ بدأ سلسلة مقالات في الأدب العربي المعاصر نشرها في «مضبطة مدرسة الدراسات الشرقية».

١-مقالة عن الأدب العربي في القرن التاسع عشر.

٢- مقالة سنة ١٩٢٩ عن (المنفلوطي والأسلوب الجديد).

٣- مقالة عن المجددين المصريين.

٣- مقالة سنة ١٩٣٣ عن القصة المصرية.

وقد عقّب صاحب الموسوعة على ذلك بقوله: «وإنتاجه فيه تافه ضئيل القيمة محدود الاطلاع».

ثانيا: التاريخ الإسلامي:

أ- فأول إنتاجه في ذلك كتاب عن: «فتوح العرب في آسيا الوسطى» سنة ١٩٢٣وفيه دراسة عن العلاقات بين الجماعات المختلفة التي اشتركت في هذه الفتوح.

ب- وفي سنة ١٩٣٢ ترجم إلى الإنجليزية تاريخ دمشق لابن القلانسي.

المبحث السابع

المستشرقون الروس والدراسات الإسلامية

البارون (روزن) المستشرق الروسي والجغرافية وغيره

لقد أبدى الروس اهتماماً ظاهراً في الدراسات الجغرافية خاصة بعد أن كان لهم اهتمام ظاهر في جمع المخطوطات العربية ونشرها (الأمر الذي ترتب عليه اكتشاف مخطوطات نادرة نذكر منها اكتشاف مخطوطة فريدة للجغرافي العربي اليعقوبي يرجع تأليفها إلى القرن التاسع وهي نسخة وحيدة معروفة حتى الآن)[1].

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأ البارون (روزن) نشاطه العلمي مؤسساً لمدرسة استشراق جديدة في روسيا، وقد كرّس هذا المستشرق الكبير أبحاثه عن البكري عالم الجغرافيا العربي وكذلك الرحالة المعروف ابن فضلان[2].

ولم يصدر عنهم في ظل النظام الجديد البلشيفي فيما يخص الإسلام إلا ما أصدره (بارنولد) ففي (مجال الدراسات عن تاريخ العالم العربي واقتصادياته امتازت سنوات العشرينيات من هذا القرن بصدور ثلاثة مؤلفات للأكاديمي (بارنولد) تحمل عناوين (الإسلام) و(الثقافة الإسلامية) و (العالم الإسلامي)[3]. كما وضع (بارنولد) عدة أبحاث درس فيها المرحلة التاريخية التي رافقت ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

وممن لهم اهتمام بما يتعلق بالإسلام والمسلمين «بيلايف» و«ياكوبوفسكي» حيث ألف بيلايف:

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في بعض الدول الأوروبية، محاضرات ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والإسلامية، جامعة بيروت العربية، ص٣١، (الدراسات العربية الإسلامية في الاتحاد السوفيتي للأستاذ فلاديمير غوستشوف).

(٢) المصدر السابق ص٢٤.

(٣) ف.ف. بارنولد، «الإسلام»، بطرسغراد ١٩٢٨. ف.ف.بارنولد، «ثقافة المسلمين» بطرسغراد ٨، ف.ف.بارنولد «عالم الإسلام»، بطرسغراد ١٩٢٢.

١- العرب والإسلام.

٢- الخلافة العربية.

وكتب (باكوبوفسكي) بحوثاً تناولت موضوع الاتصالات بين الشعوب السلافية والعالم العربي.

وكذا كتب المستشرق الروسي المعروف «فليشتنسكي» كتابه (النهضة الإسلامية) الذي يبين فيه أن حركة النهضة الإسلامية في نهاية القرون الوسطى مرت بمراحل متشابهة لحركة النهضة الأوروبية وأن هناك تشابهاً ملحوظاً في المعالم التي تميز تطور الثقافة العربية والثقافات الأخرى في تلك المرحلة التاريخية). وقد ذكر (فوتشوف) أسماء بعض المستشرقين الكبار أمثال (يوشمانوف) الذي أنجز من الأعمال العلمية الكبيرة في مجال دراسة اللغات السامية والعربية بوجه خاص.

والأكاديمي (كرانشكوفسكي) الذي اشتهر بدراساته عن القرآن الكريم وكذلك الأستاذ (غراندا) صاحب الكتاب الهام المعنون باسم (مدخل في الدراسة المقارنة للغات السامية) الذي تم تحضيره للنشر حالياً والأستاذ (بارانوف) مؤلف القاموس العربي الروسي الكبير)[١].

وقد ظهر الاهتمام الكبير في الدراسات الاستشراقية في دراسة عدد كبير من المخطوطات ثم إصدار مجموعة من التراث العربي التاريخي والجغرافي والأدبي، كما نشرت بعض مراكز الاستشراق قوائم بالمخطوطات العربية القديمة ومن أجل تطوير الدراسات الخاصة بهذه المخطوطات التي لا تقدر بثمن تم تشكيل لجنة مشتركة من المستشرقين البارزين من الاتحاد السوفييتي وجمهورية مصر العربية برئاسة الأستاذ (غافورف) العضو المراسل في أكاديمية العلوم السوفييتية والأستاذ محمد مرسي أحمد وزير التعليم العالي المصري السابق والرئيس الحالي لاتحاد الجامعات العربية[٢].

---

(١) المصدر السابق ص٢٩

(٢) المصدر السابق ص٢٨- ٢٩.

الفصل السابع

المستشرقون والدراسات الفقهية

شاخت وآراؤه في الفقه الإسلامي ومصادره من القرآن والسنة

شاخت

١٩٠٢-١٩٦٩

مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي.

ولد في ١٥ مارس ١٩٠٢ في رتيمور (سيلزيا الألمانية) ودرس الفيلولوجيا الكلاسيكية واللاهوت واللغات الشرقية في جامعتي برسلاو وليبتسك، وحصل من جامعة برسلاو علىالدكتوراة الأولى في سنة ١٩٢٣م، وبعد أن حصل على دكتوراة التأهيل للتدريس في الجامعة عين في ١٩٢٥ مدرساً في جامعة فرايبوح (في برسجاو جنوب غرب ألمانيا) وفي سنة ١٩٣٤ انتدب للتدريس في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً) لتدريس فقه اللغة العربية واللغة السريانية - بقسم اللغة العربية - بكلية الآداب، واستمر أستاذاً في الجامعة المصرية حتى سنة ١٩٣٩.

شاخت الألماني يلتحق بالإذاعة البريطانية ضد ألمانيا:

ولما قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ انتقل من مصر إلى لندن حيث أخذ يعمل في الإذاعة البريطانية (BBC) لحساب بريطانيا وحلفائها ضد وطنه ألمانيا وكان- وهو في مصر ساخطاً على حكم النازية في ألمانيا - وإن كان لم نلحظ عليه شيئاً من ذلك منذ أن جاء إلى مصر سنة ١٩٣٤ حتى تركه إياها غداة قيام الحرب، وقد تعرّفنا إليه منذ قدومه إلى كلية الآداب، وفي أثناء إقامته في انجلترا تزوج سيدة إنجليزية،

وفي سنة ١٩٤٧ تجنّس بالجنسية البريطانية ولم يعد إلى وطنه الأصلي ألمانيا بعد انتهاء الحرب في سنة ١٩٤٥[١].

ولم تكرّمه بريطانيا، بل لم تعُطهِ حَقَّه في ذلك. إذ رغم الشهادات والخدمة لم يعين أستاذاً لا في أكسفورد ولا في غيرها (وهكذا لم تنفعه خيانته لوطنه ألمانيا، وعلى كل حال فقد ترك بريطانيا في سنة ١٩٥٤ وعين أستاذاً في جامعة ليدن (هولنده) حيث استمر حتى ١٩٥٩)[٢].

وفي خريف سنة ١٩٥٩ انتقل إلى نيويورك، وعين أستاذاً في جامعة كوتومبيا حتى وفاته ١٩٦٩.

أعماله العلمية:

١-في لندن، اشترك في الإشراف على الطبعة الثانية من (دائرة المعارف الإسلامية).

٢- دراسة مخطوطات عربية.

٣- تحقيق نصوص مخطوطة في الفقه الإسلامي.

٤- دراسات في علم الكلام.

٥- مؤلفات ودراسات في الفقه الإسلامي.

٦- دراسات ونشرات في تاريخ العلوم والفلسفة في الإسلام.

٧- متفرقات.

أ- وأما في ميدان المخطوطات فقد عني بدراسة بعض المخطوطات الموجودة في استانبول والقاهرة وفارس وتونس.

---

(١) موسوعة المستشرقين، بورب ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٣.

ب- ونشر شاخت عدة نصوص فقهية، وهاك بعضها:

١- الخصاف (كتاب الحيل والمخارج) هانوفر ١٩٢٣.

٢- أبو حاتم القزويني (كتاب الحيل في الفقه) هانوفر ١٩٢٤.

ج- وفي باب الكلام والعقائد ألف كتباً ونشر مقالات (الإسلام) توينجز ١٩٣١ - مختصر في العقائد الإسلامية.

د- لكن الميدان الحقيقي الذي برز فيه شاخت هو تاريخ الفقه الإسلامي، وأهم ما له في هذا الباب كتابه الرئيسي «بداية الفقه الإسلامي» أكسفورد ١٩٥٠ ويقع في (٣٥٠) صفحة وأعيد طبعه، وقد درس فيه خصوصا مذهب الإمام الشافعي استناداً إلى «الرسالة» للإمام الشافعي، ويتلوه في الأهمية كتيب صغير بعنوان (خطط تاريخ الفقه الإسلامي) وقد ترجمه إلى الفرنسية، ونشر في باريس ١٩٥٣ في ٩١ صفحة.

وقام بإعداد موجز في «الفقه الإسلامي» كان قد تركه مخطوطاً في برجشتريمر فنشره وألف مدخلاً في الفقه الإسلامي باللغة الإنجليزية وكتباً أخرى في هذا المجال[1].

---

(١) موسوعة المستشرقين، د. بدوي ص ٢٥٤.

المبحث الأول

دراسة تحقيقية في منهجيته

ولم يكن شاخت متبعاً للمنهج العلمي في بحوثه كما ذكرنا سابقاً، والغريب أن بعض الباحثين أثنى عليه فقال عنه: (كان شاخت حريصاً على الدقة العلمية في عرض المذاهب الفقهية، وفي دراسة أمور الفقه بعامة مبتعداً عن النظريات العامة والآراء الافتراضية التي أولع بها أمثال جولد تسيهر وستتلانا، ممن كتبوا في الفقه الإسلامي، ولهذا كانت دراسات ومؤلفات شاخت أبقى أثراً وأقرب إلى التحقيق العلمي وأوثق وأجدى)[1].

ولما كان القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة المصدر الأصلي للشريعة الإسلامية وهو أمر أجمع عليه علماء المسلمين، ولما كان الوجود الإيماني والفكري والاجتماعي والسياسي مرتبطاً بهذين المصدرين كما قال محمد ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي». فقد عمل أعداء الإسلام ودول الاستعمار على التشكيك بهما والطعن في النص أحياناً والمضمون حيناً آخر، ولكنهم كانوا في كل ما فعلوه إنما مثلهم كمثل مَنْ يُريدُ حَجْبَ الشمس بمرآة ساطعة فقد كانت بحوثهم سبباً في تنبيه الناس الغافلين عن الإسلام والقرآن والسنّة النبوية حتى وجدنا عدداً لا بأس به من أهل العقل والفكر في بلاد الكفار قد أسلموا يقيناً وحباً واعتقاداً.

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لقد أراد هؤلاء أن يحجبوا النور عن أقوامهم وأن يُشكِّكُوا المسلمين بدينهم الذي أثمر تاريخهم المجيد وحضارتهم السامية المعروفة فكانت هذه الصحوة الإسلامية في كل بلد إسلامي وتطلع نحو الإسلام في البلاد الكافرة. وحين بعد المسلمون عن دينهم واستطاع

---

(١) المصدر السابق ص٢٥٥.

أهلُ الكفر أن يَبُثُّوا فيهم فتنة العصبية والطائفية، وغلب الطمع على كثير من أهل الأمر والنهي فيهم غَلَبت عليهم الكُفار واستعمروا بلادهم وأبعدوا الشريعة السمحاء عن الحياة وجندوا أقلام الاستعمار من المستشرقين ليبذروا الفتنة ويشككوا في الإسلام في مصدريته وتاريخه وحضارته وإمكانية المسلمين في العودة إلى الإسلام ليطلبوا العِزَّةَ به ثانية.

«وكان من الطبيعي أن يسعى الغرب في إلغاء الشريعة الإسلامية أولاً ثم التشكيك في مصادرها والطعن في صلاحيتها ثانياً حتى لا يفكر المسلمون فِي العودة إليها يوما ما»[1].

أما القرآن الكريم فأكثر أحكامه من الكليات والعموميات وهي في حاجة إلى تفسير تطبيقي ممن بلغه وحمل تلك الرسالة محمد ﷺ، وعلى سبيل المثال نرى أن الصلاة من أهم أركان الدين الإسلامي وقد كرر القرآن الكريم الأمرَ بإقامةِ الصلاة عشرات المرات لكنه لم يبين للأمة طريقةَ إقامتها، وكان هذا الأمر منوطاً برسول الله ﷺ ليبين للناس طريقة إقامة الصلاة قولاً وفعلاً وهذا إنما يدل على أهمية السنّة ومكانتها في التشريع.

وأصبح من اللازم لدى المستعمرين محاربة سنّة رسول الله ﷺ إذ بإبعاد السنّة النبوية والتشكيك في مكانتها في التشريع يصبح التلاعبُ بالقرآن الكريم أمراً ميسوراً.

والمتنبي الكذاب مرزا غلام أحمد القادياني والجكر ألوى، قادةُ هذا الاتجاه... في الهند، بينما تزعّم توفيق صدقي هذا الاتجاه في مصر وقد كانوا الطبقة التي أنكرت أجزاء من السنّة النبوية مبتدئة بإنكار أحاديث الجهاد بالسيف ثم انتهت بإنكار السنة النبوية بكاملها).

---

(١) مناهج المستشرقين، د. مصطفى الاعظمي ص ٦٦/٧٦.. ومسألة إنكار الجهاد أصلاً هو الذي تَبناه مَنْ باعوا دينهم لأهل الكفر والاستعمار حتى يكون ذلك سبباً مبرراً رضى المسلمين في أن يتحكم الكفار ويقولوا أمرهم.

إن هؤلاء المنافقين في داخل الأمة الإسلامية اللذين جندوا لإقناع الأمة بالاستكانة والاستسلام والرضى بالواقع والركون إلى القدر كما يوهمونهم وإيجاد صورة مشوهة عن الإسلام وموقفه من الكفار المستعمرين مزينة محاطة بأقوال كاذبة وأسانيد مزورة تثبت للإسلام ما ليس له ومما هو بريء منه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[التوبة: ٢٣].

وبجانب الطابور الخامس من المنافقين المستشرقين الذين هم الذين يخططون فكرياً لمحاربة الإسلام في مصدرية القرآن والسنة (فلم تترك عملية الطعن في السنّة النبوية لهؤلاء «المتنورين» والمفتونين بالحضارة الغربية وعملائهم ولا «للمنهزمين» فكرياً ونفسياً فحسب بل جهز الغرب كذلك جحافل من المستشرقين ويسر لهم الإمكانات المادية وسهّل لهم سبل البحث وأقام حولهم هالة من القداسة فأصبحوا رواد الغزو على السنّة النبوية، وهكذا أصبحت الحرب ضد السنّة النبوية في الداخل والخارج ففي الداخل جيش من (المنهزمين المتنزرين) وفي الخارج «طلائع المستشرقين».. وكان يحظى نتاج هؤلاء من الدعاية وسبل النشر بما يكفل له النمو والازدهار في ربوع العالم الإسلامي».

ولسنا نتحدث عن جميع المستشرقين الذين تحدثوا عن السنّة النبوية سلباً وايجاباً ولكن سنتحدث عن بعضعم وسنأخذ بدراسة جدية وعميقة هو «البروفسور جوزيف شاخت» كما سنتحدث بعد ذلك عن آخرين مثل «جولد تسيهر» و«سناؤك هور جرونيه» و«مونتغمري واط» وغيرهم، ولكن التركيز على شاخت باعتباره المثل الأعلى للدراسات الاستشراقية وللمستشرقين حيث اعتبر أرسطو زمانه حيث لا يسمح لأحد أن ينقد كتابه في دراسة أكاديمية[1] وهكذا فإن (الذي استطاع أن يأتي بنظرية جديدة متكاملة برغم من أنها خيالية إلى حد بعيد) هو البروفسور «جوزيف شاخت» وقد انصبت نظرياته على أسس الفقه الإسلامي. أما المنزلة التي وصل إليها البروفسور «شاخت» فلم يصل إليها من قبل أي مستشرق في هذا المجال).

---

(١) امتنعت جامعتا لندن وكمبردج أن يسجل أحد الطلاب الشرقيين أطروحة نقدية لكتاب شاخت «أصول الشريعة المحمدية» السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي ص ٢٧.

ولكي يشرح «شاخت» نظريته فقد نشر كتباً ومقالات عديدة بلغات مختلفة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية ووضع كتاب «المدخل إلى الفقه الإسلامي» ومن أشهر مؤلفاته على الإطلاق كتاب «أصول الشريعة المحمدية» الذي حاز على أعلى تقدير، وتمتع بالاحترام الشديد في العالم الأكاديمي الغربي، فقد قال البرفسور «جب» بأنه «سيصبح أساساً في المستقبل لكل دراسة عن حضارته وشريعته على الأقل في العالم العربي كما أثنى عليه البروفسور «كولسوف» أستاذ الفقه الإسلامي بجامعة لندن قائلاً: «إن شاخت صاغ نظرية عن أصول الشريعة الإسلامية غير قابلة للدحض في إطارهاالواسع».

المبحث الثاني

آراؤه في القرآن والسنة النبوية:

يتحدث البرفسور «شاخت» عن مكانة الشريعة في الإسلام فيقول: «إن القانون (أي الشريعة) تقع إلى حد كبير خارج نطاق الدين».

وقد ردد شاخت هذا الكلام مرة أخرى بوضوح أكثر في كتابه المدخل إلى الفقه الإسلامي ص (١٩) حيث قال:

During the greater part of the First Country - Islamic Law in the technical meaning of the term did not as yet exist. As, had been the case in the time of the prophet, Law as such fell outside the sphere of religion. and as far as there were no religious or moral objections to specific transaction of modes of behaviour the technical aspects of Law were a matter of indifferance to the muslims .

في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي - في معناه الاصطلاحي - وجود كما كان في عهد النبي، والقانون - أي الشريعة - من حيث هي هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي روحي على تعامل خاص في السلوك فقد كانت مسألة القانون تتمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين.

هذه النظرية جوهرية ومركزية وأساسية بالنسبة لكل كتابات شاخت فإذا كانت الشريعة أو القانون تقع خارج نطاق الدين وكان النبي ﷺ غير مكترث لها وكذلك المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين، واعتبر جهود النبي ﷺ والصحابة في التشريع كذباً مختلقاً وقال عن الأحاديث النبوية «من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيحاً بالنسبة إلى النبي ﷺ»[1].

---

(١) مناهج المستشرقين، د. مصطفى الأعظمي ص ٦٩.

وقد بلغ بالبروفسور «شاخت» الحقد والافتراء والبعد عن المنهج العلمي في البحث إلى أن ما ينسب إلى الفقه الإسلامي من نصوص إنما معظمه مستمد من شرائع اليهود والنصارى والديانات الأخرى والغريب أن هؤلاء المستشرقين يذكرون هذه الدعوى دون أن يسألوا أنفسهم هل أن هذه القوانين والأنظمة وهذا التشريع الكامل في الإسلام نظرية وتطبيقاً هل يجدون ذلك في التوراة والإنجيل، هذه الأنظمة السلمية التي يشهد بعظمتها أهل العلم من المسلمين وغير المسلمين ولقد تنمى الكثير من الباحثين أن تصل الأمم إلى ما وصل إليه النظام الإسلامي.

ولا شك أن ادعاء عدم اكتراث النبي ﷺ والصحابة والتابعين بالتشريع ووقوع التشريع خارج نطاق الدين وعدم صحة حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى النبي ﷺ ينتج عنه أهداف كثيرة مقبولة ومطلوبة من قبل أعداء الإسلام، تتمثل في:

١- مطالبة الشعوب الحكام في العودة إلى الشريعة الإسلامية كلام فارغ لأن الشريعة في حقيقتها خارجة عن نطاق الدين.

٢- ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس هو الفقه الإسلامي المبني على كتاب الله وسنة رسول الله لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنّة النبي ﷺ بل إن جزءاً غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى عدا اجتهادات المجتهدين)[١].

وعلى هذا يمكن للمسلمين أن يقتبسوا من القوانين الوضيعة الغربية ما أرادوا دون أن يشعروا بأدنى ضيق من مخالفتهم لدينهم وإذا أرادوا أن يسموا تلك القوانين بالفقه الإسلامي فلا مانع من ذلك ولهم فيما عمل سلفهم من قبل أسوة حسنة.

---

(١) مناهج المستشرقين، د. مصطفى الأعظمي ص ٧٠.

وفي هذا فقد أخطأ هنا «شاخت» مرتين خطأ منهجياً جسيماً:

١- لم يفكر تفكيراً عقلياً منطقياً لأنه لو فعل ذلك لتوصل إلى نتيجة عكسية.

٢- لم يرجع إلى مصدر الإسلام الأول - القرآن الكريم- عند بناء نظريته بل ضرب به عرض الحائط وبنى نظريته على نقيض ما جاء به القرآن الكريم.[١]

وإذا كان «شاخت» يرى أن القانون (أي الشريعة) تقع إلى حد كبير خارج نطاق الدين فإننا نذكر أمرين:

الأول: أن الآيات القرآنية صريحة بوجوب الاحتكام إلى شريعة الله (الدين) في كل أمر من أمور المسلمين.

ثانياً: أن بعض المستشرقين الذين كان لهم عقل وعلم وإنصاف وإخلاص في الوصول إلى الحقيقة قد أكدوا الصفة اللازمة في التشريع وهي صفة مميزة للألوهية التي هي لله عز وجل وحده.

فعن الفقرة الأولى نذكر الآيات الكريمة وهي كثيرة:

١-﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ۞ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ۞ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

---

(١) مناهج المستشرقين، د. مصطفى الاعظمي ص ٧٠.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ☆ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ☆ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ﴾ [يونس: ١٥].

ومع ذلك نتبين أن ما فعله الرسول ﷺ وما اتبعه الصحابة رضي الله عنهم لم يكن إلا اتباعاً للقرآن الكريم في نصوصه منطوقاً ومفهوما فهم قد عاشوا في كتاب الله واتبعوا نور الله في كتابه الكريم وإذا كان جمع القرآن الكريم قد توقف فيه صحابة رسول الله ﷺ كيف نفعل أمراً لم يفعله رسول الله ﷺ فكانت المقولة التي تكررت « هو والله خير» حتى قال زيد بن ثابت عن عمر (فما زال بي حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر) فكيف يقال بأن الصحابة قد حكموا الناس وعاشوا حياتهم وشرعوا تشريعاتهم خارج الدين - سبحان الله هذا بهتان عظيم- ولئن كنا أصحاب دين وعقيدة وشريعة وأصحاب حضارة وعزة وكرامة ولا نعبأ بما يقوله أعداء الإسلام خاصة أولئك

الذين خرجوا على كل مقاييس العقل والعلم والعرف المشروع، ومع هذا فنحن نبقى على طريقتنا التي تنبع من الإسلام الذي ربانا على منهج ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

وقد استخلص بعض الباحثين من آيات الله تعالى القاضية بالحكم بالقرآن الكريم ما يأتي:

١-أن الله سبحانه وتعالى قد خص لنفسه حق التشريع وأعطى لنبيه ﷺ الصلاحية في هذا المجال.

٢- وقد طلب استسلاماً تاماً لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه في كافة أمور الحياة وألزم المسلمين ذلك.

٣- الشريعة الإسلامية تشمل كافة جوانب الحياة.

٤- ليس لأحد أن يغير أو يبدل فيما أنزل الله تعالى إطلاقاً، حتى وإن كان رسولاً مرسلاً أو ملكاً مقرباً.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى طلب من البشر أن يستسلموا له في كل شؤون حياتهم فلا بد أن يهيىء لهم البداية الشاملة وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم من هذه الناحية نجد أن فيه التشريعات الشاملة لجوانب الحياة ويمكن تلخيصها في:

١- العبادات بما فيها الزكاة المنظمة للواجب على رب المال.

٢- الجهاد المشروع لنشر الدين والتنظيمات المترتبة عليه (القانون الدولي).

٣-النظام الاجتماعي للفرد والأسرة.

٤- أحكام الأطعمة والأشربة.

٥- تنظيم أحكام المعاملات.

٦- الجنايات وما يتعلق بها من قضايا وطرق إثبات وعقوبات[١].

ومع هذا فقد وجدنا من المستشرقين من بيّن الحقيقة الناصعة أن القرآن الكريم قد جاء بتشريعات كاملة تامة واضحة.

فيقول «فوايتافن» متحدثاً عن القرآن الكريم كوثيقة تشريعية، بأننا إذا قسّمنّا القرآن إلى الأنواع الرئيسية الخمسة وهي:

١- الدعوة.

٢- المجادلة مع غير المسلمين.

٣-قصص الأنبياء.

٤- سيرة الرسول.

٥- التشريع.

وصلنا إلى نتيجة فحواها:

(أن القرآن يشتمل على مواد تشريعية لا تقل عما في التوراة وهي المواد المعروفة في أدب العالم باسم - القانون -)[٢].

وهذا كولسون يثبت اختصاصية التشريع لله وحده فهو يقول (الأصل بأن الله هو الوحيد المشرّع، ولأوامره السيطرة العليا على كافة جوانب الحياة، هذه القاعدة كانت قد ثبتت بكل وضوح)[٣].

---

(١) عبد الله الرسيني، فقه الفقهاء السبعة ٤-٥ عن مناهج المستشرقين ج ١ ص ٧٣.

(٢)

(٣)

وهذا «فيزجيرالد» ينفي سلطة التشريع عن كل بشر حتى الأنبياء عليهم السلام فهو يقول (إن الإسلام يعتبر الله جل وعلا المشرّع الوحيد وينفي بشدة لأي بشر كان سلطة التشريع)[١].

وقد كان يظن بعض الباحثين أن هناك أموراً في التشريع قد تكون خارج الدين، ولهذا عندما يتنبهون للمسألة يظنون أن هذا الأصل أمر جديد طارىء في سنة معينة من سنوات دعوة الرسول ﷺ دعا الناس إلى التوحيد والحقيقة أن جعل التشريع لله وحده أمر أثبته الإسلام في كل آياته وعلمه الرسول ﷺ وعلمه صحابته رضي الله عنهم فمن هؤلاء «فوايتافن» الذي قال (في السنة الخامسة من الهجرة على وجه التقريب طرأ على فكر النبي ﷺ أنه حتى الأمور القانونية البحتة لم تكن عديمة الصلة بالدين بل هي جزء لا يتجزأ من الوحي الإلهي وقد أدخلت في الكتاب الإلهي الذي كان مصدراً للدين كله ثم يقول (إن فكرة الشريعة ليست نتيجة للتطورات التي طرأت بعد القرآن الكريم أو بمعنى آخر بعد وفاة النبي ﷺ بل صيغت من قبل محمد ﷺ نفسه)[٢].

وإن نظرية « شاخت» على ما يبدو هي نظرية «العلمانية» ولو لم يصرح بذلك وهي إقامة نظام الدولة السياسي بعيداً عن الدين وقد راينا الأزهري علي عبد الرزاق قد حمل هذه الراية واعتمد رأيه كثير من أنصار العلمانية في الغرب والشرق، وليس هنا موضع الكلام عن هذا الموضوع فإن ما ذكره القرآن الكريم أمراً أو نهياً أو استحباباً، وكذا ما بينه الرسول ﷺ ظل مصدر تشريعات المسلمين منذ بعثة الرسول ﷺ وفي كل العهود التي كان الحكم فيها لشريعة الله سبحانه وتعالى.

وهذه بعض أقوال «جوزيف شاخت» عن نشاط الفقهاء الأوائل في القرنين الأول والثاني: يقول ما يلي:

---

(١)

(٢)

١- أصبح النبي ﷺ بالمدينة نبياً مشرعاً ولو أن سلطته لم تكن تشريعية فقد كانت للمؤمنين من الحرية وللمنافقين من الوجهة السياسية[١].

٢- وكان الخلفاء الراشدون (٦٣٢-٦٦١م) القادة السياسيين للأمة الإسلامية ولا يبدو أنهم استمدوا أحكامهم من مصدر أعلى. . وإنما عمل الخلفاء إلى حد كبير على أنهم مشرعون للأمة[٢].

٣- الخلفاء الأوائل لم يعينوا قضاة[٣]. . وخطا الأمويون خطوة هامة بتعينهم القضاة الإسلاميين[٤] ونهاية القرن الأول تقريباً (٧١٥-٧٢٠م) كان تعيين القضاة يرجع إلى الاختصاصين، وهؤلاء الاختصاصيون الذي كان يتم تعيين القضاة منهم باطراد كانوا من الناس الأتقياء الذين دفعتهم رغبتهم في الدين إلى أن يخطّوا الطريق للحياة الإسلامية وكان ذلك بمحض رغباتهم الإنفرادية[٥].

٤- وحيث أن جماعة هؤلاء الأتقياء المتخصصين كانت قد نمت نمواً متزايداً في عددهم وتماسك بعضهم مع بعض فقد تحولت وتطورت إلى «المدارس الفقهية القديمة» وكان ذلك في العقود الأولى من القرن الثاني[٦].

إن كل ما يذكره تخبط ليس له دليل من النقل أو العقل، فأما النقل فإن كل النصوص في الكتاب والسنّة تدل على أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وأنه عندما سألته خولة عن ظهار زوجها أجابها بـأنه لم ينزل بذلك قرآن وحكم رسول الله ﷺ بما أنزل الله في ذلك ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ

(١)

(٢) المصدر نفسه، عن مناهج المستشرقين د. الاعظمي ص٨١-٨٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٦، عن مناهج المستشرقين د. الأعظمي ص ٨١-٨٢

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤، عن مناهج المستشرقين د. الأعظمي ص ٨١-٨٢.

(٥) المصدر نفسه ص٢٦، عن مناهج المستشرقيين د. الأعظمي ص ٨١- ٨٢.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨، عن مناهج المستشرقين د. الأعظمي ص٨١-٨٢.

﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم متمسكين بآيات القرآن حكماً وموعظة لا يرون في غير القرآن ينبوعاً ومصدراً وأصلاً لكل حياتهم الخاصة والعامة.

وقال «شاخت» (أن أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباطي، ومعلوم لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل ابتدائي ووصلت كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وكانت الأسانيد كثيراً ما تجد أقل اعتناء وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد)[١].

وقال: (وكان الكوفيون سبّاقين في نسبة نظرياتهم إلى ابراهيم النخعي ويتبعهم في ذلك المدنيون فيما بعد في هذا المجال)[٢].

«أما حركة المحدثين في القرن الثاني فهي في الواقع نتيجة طبيعية لاستمرار حركة المعارضة للمدارس الفقهية القديمة والتي كانت متأثرة بالدين والأخلاق»[٣].

إن قضية الإسناد من القضايا المهمة حيث إن الإمام الزهري رحمه الله تعالى قد استطاع أن يضع نظرية الإسناد الأصلية وأن يحفظ لنا مصدراً مهماً في الشريعة وهو السّنة النبوية المشرفة، وعلى هذا سلمت لنا الأحاديث من الوضع والتدليس فإن الحديث لا يقبل إلاّ بسند وينظر في الرواة كما ينظر في المتن (نص الحديث) وهكذا رأينا أن أكثر الذين هاجموا الإمام الزهري من الباطنية وأنصار اليهودية والصليبية لأنهم إنما أرادوا أن يكون الشريعة الإسلامية فوضى في الأحكام والتشريع.

---

(١) المصدر نفسه ص٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤.

الفصل الثامن

الاستشراق وقضية فلسطين

المبحث الأول

دراسة تمهيدية عن بواعث قيام دولة اليهود في فلسطين

الاستشراق وفلسطين: لا بد لنا أن نكتب عن قضية الاستشراق وفلسطين لما لهذا الموضوع من أهمية في معرفة واقع القضية الفلسطينية وقضية القدس التي تعيش مأساة التسلط اليهودي ومحاولة العبث بها وتغييرها من غير اعتبار للدين والتاريخ والمبادىء الإنسانية وقد كتب الكثير عن هذا الموضوع ولكننا سنحاول إيراد آراء بعض المستشرقين الغربيين عن فلسطين وقضية العرب والمسلمين الكبرى في التاريخ كما أننا لا بد من ان نشخص الأسباب التي دعت إلى قيام هذه الدويلة في قلب العالم العربي وفي أرض الإسراء ولعل ذلك إنما كان لحكمة ربانية حتى يجتمع اليهود وتكون المعركة الكبرى في التاريخ كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤-٥] ثم يقول تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

ولسنا بصدد تحديد - الأولى- والآخرة- فكل ما ورد في تأويل هذه الآيات مبني على اجتهاد إذ لم ترد أحاديث صحيحة في بيان ذلك ولسنا بصدد تحديد (العباد) الذين سيتولون الأولى - والآخرة - عقوبة من الله لبني اسرائيل وإن كان أكثر المفسرين والمؤرخين يرون أن هؤلاء القوم من - العراق- بنوخذ نصر قد سباهم وسيتولى هؤلاء القوم

أنفسهم دخول المسجد الأقصى مرة ثانية - والأصل في هذ الآيات أن كل إفساد كبير من بني اسرائيل يعقبه تسليط من الله تعالى عليهم عقوبة لهم وتأديباً واليهود على ما يذكر عنهم أنهم يؤمنون بما سيكون من أمرهم بشأن الصراع بينهم وبين المسلمين وهو صراع حاسم في نتائجة وعواقبه.

لقد اختلف كثير من الباحثين حول الأسباب الداعية لقيام دولة اسرائيل في فلسطين هل هي أسباب دينية حقاً أم هي أسباب استعمارية اتخذت من الدين اليهودي والتوراة والتلمود (وسيلة من وسائل تحقيق قيام تلك الدولة التي خالفت في قوانينها وسلوكها كل القوانين والأعراف الدولية والمبادىء الإنسانية).

يقول أحد الباحثين:- منذ الخمسينات وأنا أعيش في صراع فكري مع نفسي حول فكرتين متناقضتين تؤثران تأثيراً مباشراً ودائماً على أسلوب العمل من أجل فلسطين.

١- **الفكرة الدولى تقول**: إن اليهود الذين يحكمون العالم بصورة خفية والذين هم وراء كل الثورات[١] والدكتاتوريات والديمقراطيات اليهود المؤمنون بالتوراة والتلمود هم أصحاب المشروع الصهيوني الذين يرمون من ورائه العودة الدينية إلى أرض الميعاد فلسطين تحقيقاً لنبوءات دينية وإنقاذاً لليهود المضطهدين في أنحاء العالم بإيوائهم في فلسطين لأسباب إنسانية.

٢- **والفكرة الثانية تقول**: إن المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري خلفته الدول الاستعمارية واستغلت اليهود من أجل تنفيذه ليس حباً باليهود ولا تنفيذاً لنبوءات دينية ولا إنقاذاً لهم من المذابح لأسباب إنسانية بل كان المشروع الصهيوني لتحقيق أغراض استعمارية استغل المستعمرون من أجل تنفيذه الدين والأخلاق والإنسانية.

---

(١) التعميم دائماً لا يصلح فلو تصلح فلو قال معظم لكان أفضل وأقرب إلى الواقع.

ثم يقول: ولكنني وأحمد الله على ذلك استطعت أن أصل أخيراً إلى قناعة بأن المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري أشرف على فكرته والتخطيط له وتنظيم الصهاينة لدعمه ووضعه موضع التنفيذ الساسة والقادة والمفكرون الاستعماريون واستخدموا لتحقيقه الجمعيات التبشيرية ورجال الدين والعملاء من اليهود وغير اليهود وذلك لتحقيق أهداف ومصالح استعمارية على حساب البلاد العربية والإسلامية[١].

والذي ظهر لى بعد دراسات متعددة واطلاع على آراء الكثيرين أن اليهود الذين كانوا وراء قيام الدولة في فلسطين هم كل اليهود على اختلاف آرائهم ومذاهبهم المؤمن بالتوراة والعلماني والملحد لأنهم ينطلقون عن انتماء واحد هو الانتماء لليهودية كدين ولليهود كقوم ولأرض الميعاد كمطلب أساسي وتوافق ذلك مع رغبة كل البلاد الأوروبية والأمريكية في التخلص من اليهود بسبب الضغط الاقتصادي والاستغلال الذي يمارسونه مع الحكام والسلاطين ضد الطبقات المتوسطة والفلاحية والفقيرة في تلك البلدان ولذلك اشتهرت المقولة على لسان الأم اليهودية حين تخاطب ابنها: (يا بني كن مع أي فئة ولا تنس أنك يهودي).

---

(١) الاستعمار وفلسطين- رفيق شاكر النتشه ط٢ ص٥.

المبحث الثاني
الدوافع الاستعمارية العالمية لإقامة دولة يهودية في فلسطين

كان المشروع الصهيوني لإقامة دولة لليهود في فلسطين لخدمة مصالح الاستعمار الغربي موضع اتفاق مشترك بين جميع الدول الغربية الاستعمارية وقد كانت تلك الدول الاستعمارية قد تداعت إلى عقد اجتماع مؤتمر في ١٩٠٧م دعا إليه بتروان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك وحضره ممثلو الدول الاستعمارية بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا ولم تحضره ألمانيا بسبب حرصها على صداقتها وعلاقتها الحميمة مع الدولة العثمانية إلا أنها كانت بالطبع موافقة على القرارات التي صدرت عن المؤتمر الذي يعبر عن مصالحها.

لقد جاء في التوجيهات والتوصيات والقرارات التي صدرت عن تلك الدول الاستعمارية ما يلي:

أن البحر الأبيض المتوسط الشريان الحيوي للاستعمار والجسر الذي يصل الشرق بالغرب والممر الطبيعي إلى القارتين الأسيوية والأفريقية وملتقى طرق العالم ويكمن الخطر المهدد للعالم في هذا البحر - ففي حوضه مهد الأديان والحضارات وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية شعب واحد له من وحدة تاريخه ودينه ولغته وأصالة كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد وتتوافر له في ثرواته الطبيعية وكثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض ويكمن الخطر على كيان الامبراطورية الاستعمارية في تحرير هذه المنطقة وتثقيف شعوبها وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها وتجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة لذا فإن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استقرار وضع هذه المنطقة - المجزأة والمتأخرة على ابقاء شعبها على ما هو عليه من تفكير وجهل وتأخر وأوصى التقرير كوسيلة أساسية مستعجلة لدرء الخطر بضرورة العمل على فصل الجزء

الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي عن طريق إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا وإفريقيا ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط بحيث تقوم في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة)[١]. وقد كان الصراع بين تلك الدول الاستعمارية على من يحرز قصب السبق ويستطيع إخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود لاستغلاله لمصالحه الحيوية وكان الصراع أشد ما يكون في ذلك الوقت بين بريطانيا وألمانيا التي كانت تسعى كل منهما لإصدار وثيقة أو إعلان سياسي بها عن هذا المشروع وبالتالي ربط الحركة الصهيونية بها وظل الصراع سجالاً بين الدول الاستعمارية حتى قامت الحرب العالمية الأولى بين بريطانيا وحلفائها من جهة ومن ورائهم أمريكا وبين ألمانيا وحلفائها من جهة أخرى.

ودخلت تركيا الحرب مع ألمانيا التي هزمت وأبعدت عن جميع الأراضي التي كانت تحتلها ومنها فلسطين وأنه من المؤكد على ضوء الارتباطات الاستعمارية الصهيونية أن ألمانيا لو انتصرت في الحرب كانت ستقوم بما قامت به بريطانيا من تنفيذ المشروع الصهيوني واستغلاله بتنفيذ مصالحها كما فعلت بإصدار وعد بلفور المعروف[٢].

وقد كانت كل تلك الجهود الحربية والفكرية حرباً صليبية غير معلنة وكانت أولى المحاولات الجدية لسحق الإسلام في مهده العربي عقب صيحة أطلقها البابا في فرنسا حين دعا لوقف الحروب الداخلية بين نصارى أوروبا وتوجيه طاقات الحقد كلها إلى مسلمي المشرق العربي تحت دعوى تحرير بيت المقدس من أيدي الكفار(المسلمين)[٣] واليونان وهايتي وليبيريا والفلبين وكانت جميعها تعتزم الاقتراع برفض التقسيم (واليونان هي الوحيدة التي استطاعت أن تصمد للضغط وتوسل الرئيس ترومان بنفوذه الشخصي

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٨.

(٢) الإستعمار الفلسطيني ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(٣) وعد كيسنجر والأهداف الأمريكية في الخليج - الشيخ سفر الحوالي - مؤسسة العراب الإسلامي - أمريكا- ص ١٤٣/ ١٤٤.

والرسمي للظفر بأصوات الأمم المتحدة تأييداً للتقسيم) ومما لاحظه بنيمان بوتر أن الولايات المتحدة كانت تستخدم نفوذاً بغير حق لكي يتم إقرار مشروع التقسيم وانتقد الدكتور ستيفن بل - بتروز رئيس جامعة بيروت الأمريكية الضغط الأمريكي الذي تم التوصل به للوصول إلى قرار مشروع التقسيم قائلاً: (إن المناورة السياسية التي أدت إلى موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة نهائياً على تقرير أغلبية لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين إنما تعد صفحة من أسوأ الصفحات في تاريخ السياسة الدولية الأمريكية وليس ثمة شك في أن الضغط الأمريكي هو الذي أدى إلى قبول توصية تقسيم فلسطين مع وحدتها الاقتصادية عندما اقترعت على الجمعية العامة في يوم ٢٩ من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٤٧ وأن هذا الضغط الامريكي الفعال لإقرار التقسيم هو الذي يعزى إليه عامة سبب الانهيار الفظيع الذي تعرضت له السمعة الامريكية في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي)[١].

وفي خطاب تاريخي ألقاه وزير خارجية باكستان في الجمعية العامة للأمم المتحدة بمناسبة مشروع التقسيم قال يسأل الولايات المتحدة الامريكية المسئولة عن هذا القرار: (ما الغاية من إنشاء دولة يهودية؟ أهي من باب الدافع الإنساني؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا أقفلتم أبواب حدودكم في وجه اليهودي الذي لا ملجأ له؟ ولماذا تصرون إذن على إسكانهم في فلسطين بل ومساعدتهم على إقامة دولة لهم- حتى يصبح ذلك اليهودي الذي كان بالأمس بلا مأوى يحكم العربي الفلسطيني)[٢].

وقد كان الهدف الأمريكي من إقامة دولة يهودية في فلسطين إنشاء قاعدة عسكرية امبريالية - لتكون أداة - تستغلها أمريكا لتأمين مصالحها في الشرق العربي.

---

(١) هنري كتن - فلسطين في ضوء الحق والعدل ص ٢٧-٢٨ ترجمة وديع فلسطين - مكتبة لبنان- بيروت ١٩٧٠ عن الاستعمار وفلسطين ص ٢٨٨.

(٢) الفريد ليلينتلا- مذكرات وزير الدفاع.

قال النائب الكندي في كتابه (إني أتهم) قال (والقارة الأمريكية الشمالية ما تزال حتى اليوم تعيش في عصر الحروب الصليبية فيما يخص العرب وقضية العرب- فالمجتمع في تلك القارة ما يزال يخلط بين العرب والأتراك وقد يكون ذلك بسبب المدة الطويلة التي استمرت فيها سيطرة الإمبراطورية العثمانية على العرب)[١].

وقد صدق هذا النائب الكندي فالحروب الصليبية متوالية منذ عام ١٩٤٧ إلى يومنا هذا وما الحرب التي شنتها أمريكا عام ١٩٩١ على العالم العربي واتخذ لها قواعد عسكرية في كثير من البلاد العربية إلاّ حربٌ صليبية لها أهدافها في العقيدة حيث الردة التي بدأت وفي الفكر حيث العلمانية المتأصلة في بلاد الغرب وفي الاستراتيجية العسكرية حيث هيمنوا على كل القنوات البحرية في قناة السويس ومراكز قوى في البحر الأحمر والبحر المتوسط وفي الاقتصاد حيث هيمنوا على كل موارد النفط والأسواق الاقتصادية في البلاد العربية وباعوهم أسلحة لا يحتاجونها تقدر بمئات المليارات وعسى أن يهدي العرب وأهل الأمر والنهي سواء السبيل وأن يبصرهم بالعواقب الخطيرة لهذه الحرب الصليبية الجاثمة على قلب العرب والمدبرة لأمور السياسة والحرب والإقتصاد.

---

(١) روجيه ديلورن - المصدر السابق ص ١٣٩ (الاستعمار وفلسطين ص ٢٩٢).

المبحث الثالث

الفرنسيون وقضية فلسطين

سبق أن ذكرنا أن قيام دولة لليهود في فلسطين هو مطلب صهيوني استعماري ولهذا كانت الدول الكبرى قد اهتمت كثيراً بهذا الموضوع ولعل فرنسا أول دولة صرحت وبذلت جهوداً كبيرة بهذا الخصوص (ولما كانت فرنسا من تلك الدول الاستعمارية التي انطلقت إلى احتلال الشرق وتوسيع امبراطوريتها في العالم العربي والإسلامي لذلك فقد تبنت الدعوة إلى المشروع الصهيوني مبكراً بل سبقت غيرها في العمل لتحقيق ذلك الحلم الاستعماري) (ففي القرن الثاني عشر قام مغامر فرنسي مشهور يدعى رينودي شايتون الذي كان يلقب بأمير ما وراء الأردن ببناء اسطول القرصنة في العقبة بغية السيطرة على البحر الأحمر وعدن ليهيمن بذلك على التجارة بين أوروبا والهند وكان يهدف إلى السيطرة كذلك على الحجاز ومكة حتى تصبح في يده في النهاية مفاتيح الاقتصاد والطرق الروحية للعالم الإسلامي وقد انتهى به الأمر إلى الفشل لأنه لم يكن يملك الوسائل الكفيلة بتحقيق أحلامه ولكنه كان سباقاً إلى تخيل صورة النجاح العظيم الذي أدركته الامبراطورية البريطانية فيما بعد على نحو قريب من الحقيقة ذلك النجاح الذي هو اليوم تنطوي عليه صدور الأمريكيين والإسرائليين وفي إطار هذا الحلم الإستراتيجي وحده ينبغي أن تضع الصهيونية وتفتش عن جذورها ومبرراتها ومن غير هذا فإننا سوف نتيه في دنيا الأساطير التي يمكن أن تمنح السياسة صورة ولكنها لا يمكن أن تكون لها دافعاً ولا محركاً)[١].

---

(١) الاستعمار وفلسطين ص١٠٨- ١١٠.

وقد انتشرت الدعوة إلى المشروع الصهيوني مع انتشار الدعوة إلى التوسع الاستعماري في الشرق ولم يكن من باب المصادفة أن يتبنى هذه الفكرة نابليون بونابرت عندما قرر غزو المشرق واحتلال مصر وفلسطين وبلاد الشام جميعها واحتل مصر عام ١٧٩٨م[(١)].

تقول المؤرخة باربرة توخمان في تعليقها على الأهمية التاريخية المتمثلة في نداء نابليون بالنسبة لمستقبل التناحر الإمبريالي بين الدول الرأسمالية الكبيرة وارتباط المشروع الصهيوني به ارتباط عضوياً (هذا على الرغم من نزعات تروجمان الصهيونية) [بعد نابليون أصبح مسلماً به أنه كلما تصارعت الدول الكبرى في الشرق الأوسط يظهر من يقترح احياء اسرائيل كما أصبح من المسلم به أيضا أن ينفس هذا الشخص في حلم سعيد ليس حول كسب منطقة نفوذ في بقعة استراتيجية حيوية فحسب بل أيضاً حول اجتذاب النفوذ والثروات المزعومة ليهود العالم إلى جانبه][(٢)].

وقد فشل نابليون في تحقيق حلمه في قيام دولة اسرائيل في فلسطين حين هزم شر هزيمة على أسوار عكا ولهذا كانت مقولته المشهورة [لو فتحت عكا لفتحت الشرق][(٣)].

وكان لاهاران في كتابة (المسألة الشرقية الجديدة) يحث اليهود ليس فقط على التمسك بحقوقهم في أرض الأجداد وإنما أيضاً كان يسعى إلى أن ينمي لديهم الشعور بالتفوق على الشعوب الأخرى ليمنحهم نوعاً من الثقة - إن أي عضو في الجنس البشري اليهودي لا يمكن أن يتخلى عن حق شعبه الذي لا جدال فيه ولا مساس فيه بأرض أجداده دون أن يتبرأ بذلك من ماضيه وأجداده وإن مثل هذا العمل غير ملائم بصورة

---

(١) تيبرد يستريا من السويس إلى العقبة ص ٦٩ ترجمة يوسف مزاحم دار العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٤.

(٢) صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقي ص ٥٧- ٥٨ ط١ دار العورة بيروت ١٩٧٥.

(٣) قسطنطين خمار - الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ص ٢٣ - المكتب التجاري - بيروت ٦٦ ط٢ عن الاستعمار وفلسطين ص ١١٢.

خاصة في وقت سوف لا تمتنع فيه الظروف السياسية عن إعاقة الدولة اليهودية فقط ولكنها بالأحرى ستسهل تحقيقها. إن دعوة عظيمة محجوزة لليهود ليكونوا ممراً حياً بين القارات الثلاث إنكم سوف تكونون حملة المدنية الأوروبية التي ساهم بها جنسكم لحدٍ كبيرٍ.

إنكم ستكونون وسطاء بين أوروبا وآسيا البعيدة لتفتحوا الطرق المؤدية إلى الهند والصين تلك المناطق المجهولة التي يجب أن تفتح في النهاية أمام المدنية].

لقد كان من البديهي أن يتخذ الاستعمار الفرنسي وغيره من إخوانهم النصارى واليهود في البلاد العربية وسيلة للسيطرة على البلاد وتحريضهم على نصرتهم وإظهارهم بمظهر العلم والمدنية والحضارة والارتقاء الذي يوجب على شعوب البلاد العربية الترحيب بهم والرضى بحكمهم (ولقد كان لفرنسا نشاط كبير بين الطوائف المسيحية في الدولة العثمانية خاصة في بلاد الشام وكانت تحرص على فرض حمايتها عليهم خاصة الكنائس الشرقية المارونية والكاثوليكية ولم تعدم من وجود أنصار لها في بلاد الشام خاصة عندما أصبح الحكم التركي حكماً ظالماً فاسداً أصابه الانحلال وأوشك على الانهيار خاصة بعد عزل السلطان عبد الحميد عن الخلافة على يد اليهود والنصارى والمنافقين من الأتراك والمغفلين من الضباط المسلمين).

(وكان من أهم الشخصيات العربية التي كانت تعتبر فرنسا مشعل الحضارة والحرية نجيب عازوري صاحب كتاب يقظة الأمة العربية والذي قال عنها: [تقدم فرنسا من بين كل الدول الأوروبية المساعدة الأسخى والأكثر عفوية للمظلومين والتعساء فالأمة الفرنسية بجوهرها هي أمة الفروسية وهي التي بادرت إلى الحملات الصليبية الخطيرة التي عادت نتائجها بفوائد على العالم بأسره لقد بذلت الغالي والنفيس من أجل استقلال اليونان وبعث ايطاليا كما غزت الجزائر لا من أجل إقامة مستعمرة إنتاجية لها منها بل وفوق ذلك من أجل تحرير المتوسط من القرصنة البربرية التي كانت تشله وتهدد التجارة الدولية ولقد قامت بحملة على سوريا وخلقت الحكم الذاتي في جبل لبنان دون أن

تتمركز في البلاد كما كان يمكن أن تفعل وأخيراً هي التي حمت الإسرائيليات. إن الخدمات التي لا تحصى والتي أدتها على مر الأزمان بقضية الحضارة تعطيها الحق في أن تتمتع بمحبة الشرقيين وجميلهم دون تمييز في العرق أو في الدين)[١].

ومن الغريب حقاً والملفت للنظر أن ترد لفظة -نبوخذ نصر الحديث - في كتابات فورس هس فقد بعث برسائل متعددة إلى دوز كبير حاخامي امستردام سنة ١٨٦٥ وغيره يحثه على إقامة دولة يهودية في فلسطين عن طريق التعاون مع الفرنسين الرأسماليين.

فقد ورد في بعض كتاباته ما يأتي:

(مما يتفق مع مشاعر الشعب الفرنسي ومع مصالح السياسات الفرنسية قيام فرنسا بعد أن تكون جيوشها المظفرة قد أطاحت بنبوخذ نصر الحديث بتوسيع عملها التحريري ليشمل الأمة اليهودية أيضا من مصلحة فرنسا أن ترى الطريق المؤدية إلى الهند والصين وقد استوطنها شعب موال لقضية فرنسا حتى النهاية وذلك كي تحقق الرسالة التاريخية التي أدت إليها كتركة من الثورة الكبرى لكن هل توجد أمة أخرى مؤهلة لتنفيذ تلك الرسالة على اعتبار أن الرسالة نفسها أنيطت باسرائيل منذ بدء التاريخ).

وهكذا يتحصل لنا أن المفكرين الفرنسيين يكادون يجمعون على حق اليهود في إقامة دولة فلسطينية وأن من مصلحة فرنسا الكبرى أن تساند ذلك بل أن تقيم هذا العمل بنفسها وأن ذلك سبب في توسعها الاستعماري والاقتصادي في الشرق.

---

(١) نجيب عازوري يقظة الأمة العربية ص١١٥، تعريب وتقديم د. أحمد ابو ملحم-المؤسسة العربية للنشر بيروت - الاستعمار وفلسطين ص ١١٢. =

المبحث الرابع
البريطانيون وقضية فلسطين

تكاد تكون بريطانيا من أشد الأمم حماساً لإنشاء دولة يهودية في فلسطين ورغم الصراع القائم بينها وبين أمريكا لكن أمريكا ألحت عليها بإلغاء قانون الانتداب وعرض القضية على الأمم المتحدة واستعمال الضغوط الدولية على الدول جميعاً، ووعد بلفور وما سبقه من جهود بريطانية كانت من الأسباب الرئيسية وتحقيقا للمصالح البريطانية في الشرق الأوسط.

يقول اوردهوارس مايوكالمن في كتابه (الصهيونية والسياسة الدولية) عن فكرة بعث اسرائيل بين أصحاب المصالح الاستعمارية من غير اليهود فقال (انتشرت فكرة بعث اسرائيل باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية والمستوى الديني في بريطانيا وفرنسا بين غير اليهود بشكل أوسع وأشد من انتشارها بين اليهود فالبنسبة لهولنفورث حين كتب عام ١٩٥٢ في انجلترا (ملاحظات حول وضع اليهود في فلسطين) لم تكن إقامة الدولة اليهودية في فلسطين عملاً إنسانياً وعادلاً بل ضرورة سياسية في الذهن البريطاني لحماية الطريق عبر آسية الصغرى إلى الهند - أما المحرك المباشر فكان الحديث الملح حول قناة السويس فهذا المشروع الكبير حرك الفرنسيين للتفكير بالفكرة نفسها (بعث اسرائيل) كما يظهر ذلك من كتاب ديني (المشكلة الشرقية) الحديثة وكتاب لاهرامي (المسألة الشرقية) ص ٤-٤٩[١].

---

(١) د. أميل توما جذور القضية الفلسطينية (دراسات فلسطينية ٩٢) ص ٩ م ت ف مركز الأبحاث بيروت ١٩٧٣ - الاستعمار وفلسطين ص ١٧٦.

أ- فلنت-الفيلسوف السياسي

ومن البريطانيين «فلنت الفيلسوف السياسي الذي يبشر بدين جديد » لقد كان غريب الأطوار وقد كان صحفياً ورحالة وأنهى رحلاته بالإقامة في مسكن بناه في جوار حيفا بعد أن تعرف في إحدى الجولات على مدعي النبوة - أمريكي إسمه «تمس هيرس» فآمن به وأعلنه مسيحاً جديداً وقدم له زوجته إلى أن اختلف وإياه فأخذ يبحث عن عقيدة جديدة يسد بها فراغ حياته بعد أن خسر زوجته بسبب ذلك المسيح المزعوم دعا لها بتعبير جديد عن الوحي الإلهي القديم بعودة اليهود إلى فلسطين كوسيلة لتطوير حياة أهل الشرق من عرب ويهود وكأداة لترسيخ النفوذ البريطاني على طريق الهند وكمسرح لتطبيق نظرياته الخاصة في الاشتراكية زار فلسطين والآستانة عام ١٨٧٩م في محاولة لتحقيق المشروع وقد زعم أن السلطان عبد الحميد وافق ثم تراجع ولكن فلت لم ييأس وسكن قرب حيفا يكتب ويخطط إلى أن مات عام ١٨٨٨م وخلاصة آرائه موجودة في كتابه (أرض جلعاد) وهي تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين برعاية بريطانيا إنما هو خدمة سياسية وعسكرية لبريطانيا مثلما هو خدمة إنسانية للعالم[١].

ب- الدكتور توماس كلارك.

الدكتور توماس كلارك نشر كتابا عام ١٨٦١م يحمل عنواناً بمنتهى الوضوح بالنسبة لإحياء قضية اليهود فهو يقول (سوف ينعش بعث الأمة اليهودية بني اسرائيل إلى حد لا يقدر كما سيعود علينا بأفضل المنافع الممكنة على الإطلاق ولئن قضت الضرورة فيما مضى ببقاء المملكة التركية كدولة محايدة وبعدم مس حدودها باعتبارها عائقاً وخطاً دفاعياً فمن المؤكد أن احتلال اليهود لفلسطين تحت حماية انجلترا أصبح يشكل ضرورة أعظم وأكثر من أي وقت مضى فإذا كانت انجلترا تعتمد من جديد على تجارتها بوصفها

---

(١) أنيس صايغ الهاشميون وقضية فلسطين ص ١٩ منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية- صيدا - بيروت ١٩٦٦ المصدر السابق ص ١٧٧.

حجر الزاوية في عظمتها وإذا كان أقرب مجرى لهذه التجارة وأفضله يمر عبر محور القارات الثلاث الكبرى وإذا كان اليهود يؤلفون شعباً تجارياً في الجوهر ألا يكون من الطبيعي جداً القيام بغرسهم على مقربة من تلك الطريق العظيمة للتجارة القديمة[1].

ج- آرنولد توينبي

ويعتبر ارنولد توينبي اليهودية ظاهرة اجتماعية شاذة بحسبانها قضية متحجرة من حضارة بائدة انقرضت كل مظاهرها ويقول (ولما فقدت اليهودية صفتها كدولة استثار هذا التحدي اليهود ليبتدعوا لأمتهم طرازاً من الكيان الطائفي استعاضوا داخل نظامه عن فقدان دولتهم وبلادهم بالاحتفاظ بذاتهم في صورة (تشتت) و(انتشار) بين ظهراني أغلبية أجنبية وفي ظل حكم أجنبي)[2].

د -هيررت مابديوتام.

هيررت مابديوتام: الخبير العسكري في صحيفة الغارديان البريطانية المؤيدة للصهيونية بقوة وصاحب النفوذ والاتصالات الواسعة في الدوائر الإنجليزية الحاكمة ومنذ ذاك تحدث بوضوح كامل عن المشروع الإمبريالي في فلسطين بقوله – مصر هي مصلحتنا الرئيسية في المشرق وهذا يعني أن فلسطين هي مصلحتنا الرئيسية كذلك لأنها تشكل الآن كما كانت دوماً مفتاح مصر يضاف إلى ذلك أن مصر مهمة بالنسبة لهذه البلاد (أي انجلترا) ليس بسبب ما تمثلة بحد ذاتها فحسب بل لأنها تشكل المعبر الرئيسي في اتصالاتنا مع امبراطوريتنا الهندية. ثم يقول (من المؤكد تماماً).

---

(١) د. صادق جلال العظم الصهيونية والصراع الطبقي ص ٦٧- ٦٨ المصدر السابق ١٨٨-١٨٩

(٢) المخططات التلمودية – أنور الجندي ص ٢٧

المبحث الخامس

الأمريكيون وقضية فلسطين

لا يختلف الأمريكيون في نظرتهم الاستعمارية والعمل بجد ونشاط لإقامة دولة يهودية في فلسطين وقد وجدت تلك الدول الاستعمارية مبررات للسيطرة على البلدان الضعيفة ولا بد أن نعرف الفلسفة الأمريكية في الاستعلاء والهيمنة على العالم وهي التي استفادت كثيراً من دولة اسرائيل - (فمنذ وجد الاستعمار وجدت سياسة السيطرة على الشعوب المغلوبة والضعيفة وجدت المبررات الفلسفية والدينية والحضارية التي يطلقها الساسة المفكرون والمبشرون تبريراً لاستعمارهم هذه الشعوب واستغلالهم لها.

ولكن أي من الفتوحات لم تلجأ لتبرير نفسها إلى بواعث نبيلة ومترفعة ويلاحظ السناتور فولبرايت على حق أن سياسة القوة تمارس مستترة بشتى الأسماء ويضيف قائلاً (لقد كان البريطانيون يسمونها عبء الرجل الأبيض والفرنسيون رسالتهم الحضارية وأمريكيو القرن التاسع عشر مصيرهم المحتوم أما الآن فيدعونها مسئوليات القوة والسلطان ويجمع هذه التعابير قاسم مشترك هو عنصر لا ارادي خارج الاختيار العقلاني)[١].

وخلال القرن الماضي كتب هيرمان ملفيل - نحن الأمريكيون شعب خاص شعب مختار واسرائيل العصر الحاضر - إننا نحمل دقة الخلاص لحريات العالم - وهكذا فالحلم قديم وقبل ذلك - أي في عام ١٧٦٥م كتب جون ادامز: إنني اعتبر دوماً تأسيس أمريكا كفاية إلهية صممت بقصد تنوير وتحرير جزء من الإنسانية ما زال يعيش تحت نير العبودية)[٢].

---

(١) الإمبروطورية الأمريكية كلود جوليان ص ١٨ ترجمة ناجي أبو خليل ود. فؤاد شاهين دار الحقيقة بيروت طبعة ١- ١٩٧٠ المصدر السابق ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٩- ٢٠ -المصدر السابق ص ٢٤٢.

وقد عبر عن هذه القناعة وبعبارة أكثر فظاظة السناتور بفريدج عندما أكد في أواخر القرن الماضي بأن الله قد اختار الشعب الأمريكي من بين جميع الأجناس ليقود العالم أخيراً إلى تجديد نفسه.

ولم يكن الرئيس ترومان ليساوره الشك بهذه الحقيقة القائمة عندما هنّأ نفسه عام ١٩٥٢م لأن أمريكا قبلت أخيراً بدور الزعامة الذي تدعونا العناية الإلهية إلى القيام به منذ جيل[١].

إذن فهي العناية الإلهية وإرادة الرب كما فسرها رجال الدين. ففي عام ١٨٨٦م نشر المبشر البروتستنتي جوزيا سترونغ كتاباً أعيد طبعه عدة مرات فيما بعد بعنوان - بلادنا - أعلن فيه بأن العنصر الانجلو سكسوني قد اختاره الله لتحضير العالم[٢].

في عام ١٩٤٧م وجهت الحركة الصهيونية بياناً إلى الرئيس الأمريكي هاري ترومان ذكرت فيه أن قيام دولة يهودية في فلسطين ضروري لاستقرار الملايين الذين لا يزالون في مساكن التجمع بألمانيا وأوروبا حتى يُبنى منهم حائط أمريكي في الشرق الأوسط والولايات المتحدة لا يمكنها الاعتماد في الأيام القادمة على حليف حازم خير من دولة يهودية في ذلك الجزء من العالم[٣].

وأخيراً في عام ١٩٤٧م استسلمت بريطانيا للضغوط الأمريكية وأحالت القضية إلى الأمم المتحدة وفي شهر نوفمبر من العام نفسه اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة واتخذت قراراً بقيام الدولة العميلة مخالفة بذلك رأي جميع دول آسيا وأفريقيا فيما عادا دولتين منهما في جنوب أفريقيا[٤].

---

(١) المصدر السابق ص٣٨- ٣٩- المصدر السابق ص ٢٤٣

(٢) المصدر السابق ص٦٣- المصدر السابق ص ٢٤٣.

(٣) الصهيونية والعنصرية حبيب قهوجي ص ٣٧- ٣٨ مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية ط١ دمشق ١٩٨٠ المصدر السابق ص ٢٨٦.

(٤) عاجلا أم آجلا ستزول إسرائيل هنري بيزيدة ص ٢٠- ٢١ ترجمة ريمون نشاطي دار العلم للملايين بيروت ط١- ١٩٦٨م

وفي هذا يقول ارنولد توينبي (ومن هذه الزاوية نظر كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري في أمريكا وكذلك الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة وجعل الأربعة يحاولون أن ينافس الواحد منهم الآخر في معاضدة اليهود بإظهار حماس أكبر لتحقيق المطامح اليهودية الجديدة تماماً كما تنافست بريطانيا وألمانيا على كسب التأييد اليهودي من قبل وفي مثل تلك السنوات الحرجة ما بين ١٩١٥- ١٩١٧ وكما قال هنري بيزيدا في كتاب (عاجلاً أو آجلاً ستزول اسرائيل) كانت الأمم المتحدة تلك الغرفة التسجيلية لقرارات الامبريالية الامريكية قد عملت كما أرادها أسيادها أن تعمل وهكذا استطاع وايزمان في ١٢ مايو سنة ١٩٤٨م أن يقول في رسالة بعث بها إلى الرئيس الأمريكي ترومان أن دور القيادة الذي قامت به الحكومة الأمريكية بوحي منكم جعل من الممكن إقامة دولة يهودية[١] .

ومن المعروف عامة أن أصوات الأمم المتحدة تأييدا لقرار التقسيم وقد تم الحصول عليها بالضغط الأمريكي وسياسة القوة فقبل التصويت ببضعة أيام بدا أن مشروع التقسيم قد لا يظفر بأغلبية الثلثين المطلوبة لأصوات المقترعين ولكن التأجيلات المتعددة أتاحت للصهيونيين والذين يعطفون عليهم من موظفي الولايات المتحدة فرصة الضغط على الصين وأثيوبيا إنه إذا ما أصبحت فلسطين جزءا من الامبراطورية فلن يجري استعمارها أبداً بالمعنى الحقيقي للعبارة على يد ذلك النوع من الرجال الانجليز الذين صنعوا كندا وأستراليا لا أحد غير اليهود يستطيع بناء دومينيون جديدة مستقلة على البحر الأبيض المتوسط مرتبطة منذ البداية بهذا البلد في العمل الإمبريالي فتشكل في آن واحد عنصر وقاية من الشرق الغريب ووسيطاً بينه وبيننا وحضارة متميزة عن حضارتنا ولكن مشبعة بأفكارنا السياسية[٢] .

---

(١) فلسطين جريمة ودفاع أرنولد توينبي ص ٧٢.

(٢) مفارق الطرق إلى إسرائيل كريستوفر سايكس ص ٣٨٩ تعريب وتعليق خيري حماد - دار الكتب العربية بيروت ١٩٦٦ - المصدر السابق ص ١٨٩ .

المبحث السادس

ايطاليا وقضية فلسطين

أما ايطاليا فقد كان اللقاء بين هرتزل وبين بوبيتي ملك ايطاليا سنة ١٩٠٤ حول مساعدة ايطاليا لليهود لتأسيس دولتهم في فلسطين وقد كان الملك صريحاً معه، وحاول هرتزل أن يثير اهتمام الملك بمخطط طرابلس لحل فائض الهجرة اليهودية إلى منطقة طرابلس تحت القوانين والمؤسسات الليبرالية الإيطالية فأجابه الملك: ولكن ذلك أيضا وطن لأناس آخرين.

ورد عليه هرتزل بقوله «لكن تقسيم تركيا سيحدث حتماً وعندما ذكر هرتزل فكرة نابليون حول إقامة الدولة اليهودية في فلسطين قال الملك: لا لقد أراد فقط أن يجعل من اليهود المنتشرين في شتى أنحاء العالم عملاء له.

وقد أظهر الايطاليون التأييد لإقامة وطن يهودي في فلسطين ولذا نجد أن مازيني الزعيم الايطالي القومي يحث اليهود على ايجاد وإقامة دولتهم فيقول (بدون وطن تبقون بلا اسم بلا علامة مميزة بلا صوت ولا حقوق أيها الإسرائيليون لا تخدعوا أنفسكم بأمل التحرر من ظروف اجتماعية مجحفة إن لم تفتحوا أولاً وطناً لأنفسكم لأنه حيث لا يوجد وطن لا يسود إجماع على رأي يمكنكم من اللجوء إليه)[١].

وهكذا كانت إيطاليا التي لها أطماع في البلاد العربية حيث احتلت ليبيا - طرابلس الغرب وقامت بتقتيل المسلمين وتعاونت مع اليهود ضد المسلمين في فلسطين وكانت الميليشيات العسكرية تدرب في المعسكرات على صلة وثيقة بالمخابرات الايطالية[٢].

---

(١) بديعة أمين المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ص ١٥٢ دار الطليعة ط١ بيروت ١٩٧٤ - المصدر السابق ص ١٣٠.

(٢) الاستعمار وفلسطين ص ١٣٤ والحركة الصهيونية ص ١٥٢ -دار الطليعة ط١ بيروت ١٩٧٤.

الفصل التاسع
المستشرقون والعلوم عند المسلمين
المبحث الاول
ا- دراسة تمهيدية عن العلوم عند المسلمين

لقد كان للعلوم التي أرسى قواعدها علماء المسلمين وجعلوا لها النظرية التجريبية بجانب الدراسة النظرية لما كان عليه علماء اليونان قبلهم من الاعتماد على الدراسة النظرية فحسب وقد كان اعتماد علماء الغرب في نهضتهم الحديثة على ما أثبته المسلمون وما توصلوا إليه في مختلف شؤون المعرفة وقد كان للدراسات الاستشراقية نصيب في البحث عن الحقيقة، فمنهم من استقصى الأدلة والوثائق وعرف الحقيقة فنطق بها وأثنى على علماء المسلمين جاعلاً لهم الفضل في النهضة الأوروبية الحديثة، والآخرون بين حاقد أغمض عينيه عن الحقائق وجاهل حقيقة الأمور والأحداث وعاجز عن مواصلة البحث العلمي الذي يحتاج إلى صبر ومصابرة (فكان من نتائج اصطراع الشرق منذ قرون مضت وإلقاء الغرب الرّعب في قلوب الأوروبيين أن صار الأوروبيون يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربية التي لم يتحرر من سلطانها إلاّ منذ زمن قريب فأخذوا ينكرون فضل العرب على أوروبا وتمدينهم لها وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرخي أوروبا وكتابها الذين لم يقروّا لغير اليونان والرومان بتمدينها وقد ساعدهم على هذا ما عليه العرب والمسلمون من التأخر في الزمن الأخير فلم يشاؤوا أن يروا للعرب رقياً تاريخياً أعظم مما هم عليه الآن غير ناظرين إلى أن حضارة العرب قد أفلت منذ أجيال وأنه لا يصح اتخاذ الحال دليلاً على الماضي.

ولم تخل أوروبا مع ذلك من مؤرخين أبصروا ما للعرب من فضل في تمدين أوروبا فألفوا كتباً اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية)[١].

ولهذا يقول «لوبون» (أنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم وأن هذا التأثير خاص بالعرب فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم والعرب هم اللذين هذّبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان والعرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون- وإذا كانت هناك أمة تقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً، قال مسيو «ليبري»: (لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة في الآداب عدة قرون)[٢].

وأقول، لو قال مسيو «ليبري» (ولو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لما قامت نهضة أوروبا الحديثة) لكان أثبت وأصدق في بيان حقيقة التاريخ والعلوم والنهضة ودور العرب فيها.

وإنما تعرف الأمم بأخلاقها وآثارها الإنسانية والعلمية في الأقوام التي كانت لها السيادة عليها، ولهذا فإننا نقول لم يحدث لأمة أن ظلت آثارها شامخة تنادي بالسمو والتقدم الحضاري كما كان للعرب، يقول «لوبون»:

«وتأثير العرب عظيم في الغرب وهو في الشرق أشدّ وأقوى، ولم يتفق لأمةٍ ما اتفق للعرب من النفوذ والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة وعادت أديانها

---

(١) حضارة العرب د. غوستاف لوبون، وسأرمز له «لوبون» نقله إلى العربية، عادل زعيتر، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، المقدمة للمترجم ص٥.

(٢) لوبون ص ٢٠، ٢٦، ٢٧.

ولغاتها وفنونها لا تُكوِّن سوى ذكريات، والعرب وإن تواروا أيضاً لم تزل عناصر حضارتهم وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم حيّة وينقاد أكثر من مئة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشريعة الرسول ﷺ»[1].

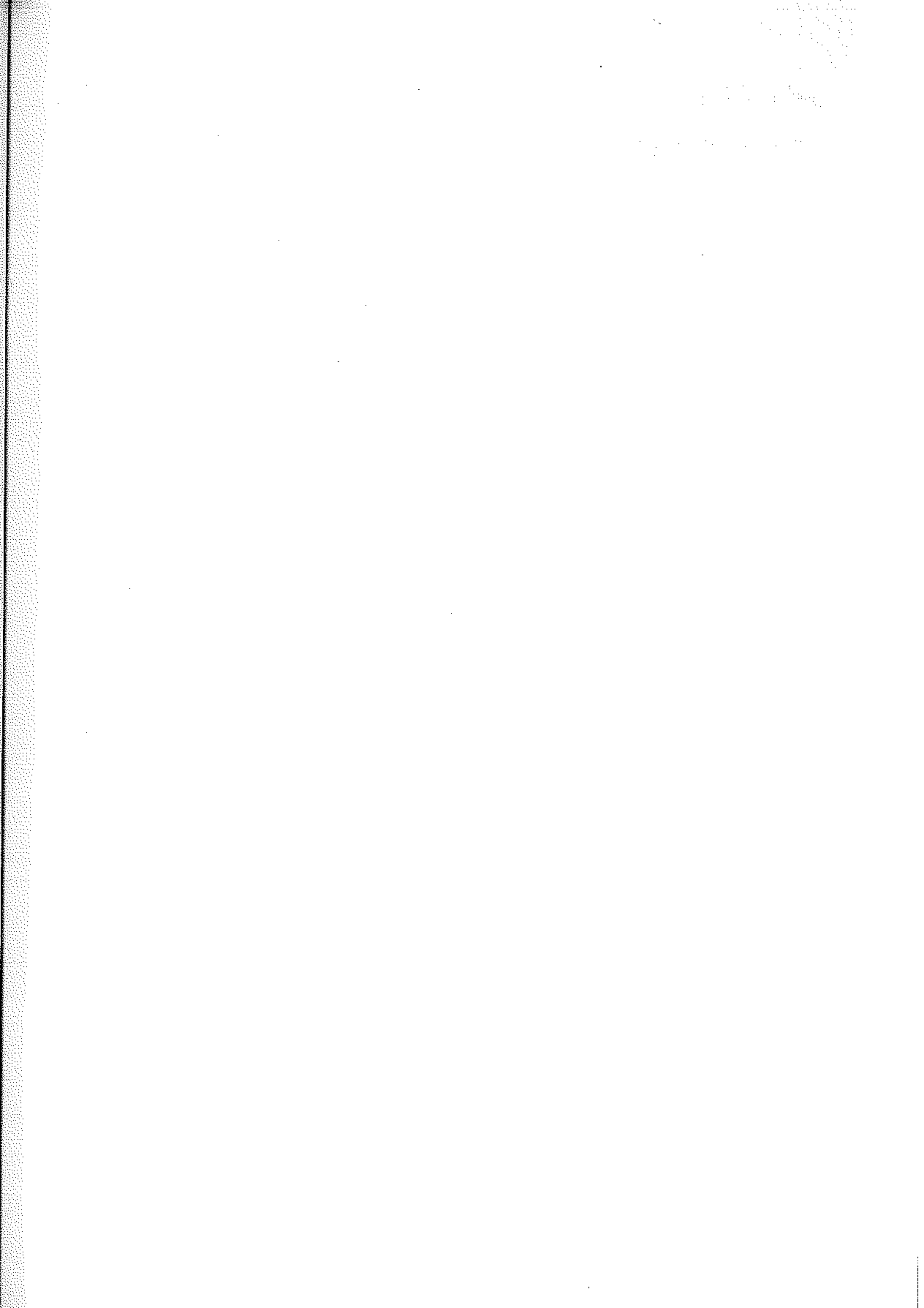
ب- قدرة العرب وعقليتهم العلمية وهمّتهم العظيمة:

يبين «لوبون» ما امتاز به العرب من الهمّة العظيمة والقدرة على التنظيم والتنسيق والإعداد والهيمنة عند دخول أي بلد أو تأسيس مدينة فيقول (الإنسان يقضي العجب من الهمّة التي أقدم بها العرب على البحث وإذا كانت هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همّهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسّسوا فيها مدارس كثيرة ومنها المدارس العشرون التي روى «بنيامين التطبليّ » المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة.. إلخ على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو العرب وقد قيل أن سبب ذلك، أن «شارل الحكيم» لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في المكتبة الفرنسية الملكية أكثر من تسعمئة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت)[2].

---

(١) لوبون، ص ٢٠، ٢٦، ٢٧. وعدد المسلمين اليوم يربو على مليار ونصف.

(٢) لوبون. ص ٤٣٤.



المبحث الثاني

المستشفيات والمصحات الطبية

أ- النصائح الطبية والوقاية الصحية:

لقد عرف المسلمون طرق العلاج وأثبتوا النصائح والوصايا وعرفوا الحماية والوقاية من الأمراض مما جعل لهم تجارب مفيدة ومصحات جيدة يشهد بفضلها كثير من علماء الغرب بل إن المصحات النفسية كانت على درجة عالية من التنظيم والإعداد فقد عرفوا كيف يختارون مواقع المستشفيات وأكدوا على أثر الأجواء الطبيعية في صحة الإنسان وأكدوا على نوع خاص من العقاقير والأدوية لكل حالة من حالات المرضى فإنه (لم يجهل العرب أهمية حفظ الصحة وكان العرب يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلّمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها وكانت مناهجهم الصحية الطبية منذ القدم ومن ذلك ما أمر به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر ثم ما سار عليه أبناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة وليس فيما نسب إلى النبي من الوصايا الصحية ينتقد.

وكان من عادة مؤلفي العرب الغالية أن يوجزوا وصاياهم الصحية في كلمات جامعة يسهل حفظها[1].

ب- الجو الصحي وأثره في الأمراض وخاصة «السل»:

ولقد جعل علماء المسلمين للجوّ أثره في شفاء بعض الأمراض وتأثر بذلك علماء أوروبا وأكدوه ولهذا (لم يجهل العرب تأثير الجو الصحي ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا على تأثير الإقليم في داء السل وإيصاؤه المصابين به كما يوصون

(١) ص ٤٩٢- ٤٩٤

الآن بأن يقضوا فصل الشتاء في جزيرة العرب وبلاد النوبة واليوم نرى المصابين بداء السل يرسلون في الغالب إلى بقاع النيل القريبة من بلاد النوبة.

وتنطوي وصايا مدرسة ساليرم على نصائح غالية في علم الصحة ولا أحد يجهل أن هذه المدرسة التي عدت أول مدرسة في أوروبا زمناً طويلاً مدينة للعرب بشهرتها أن النورمان لما استولوا على صقلية وعلى جزء من إيطاليا في أواسط القرن الحادي عشر من الميلاد أحاطوا مدرسة الطب التي أنشأها العرب بما أحاطوا به المعاهد الإسلامية من الاعتناء الكبير وأن قسطنطين الإفريقي الذي كان من عرب قرطاجة عين رئيساً لها وأنه ترجم أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية فاختطفت من هذه الكتب وصايا مدرسة ساليرم التي ظلت بسبب شهرتها الفائقة زمناً غير قصير[1].

---

(١) ص ٤٩٢- ٤٩٤

المبحث الثالث

الفيزياء عند المسلمين

لقد كان لعلماء المسلمين في علم الفيزياء رغم ضياع عدد من الكتب المهمة في هذا العلم في الغزو التتري والغزو الغربي الذي استولى على كثير من المخطوطات واستأثر بها وأخفى معالمها في كثير من الأحيان مدعياً نسبة هذه العلوم لأنفسهم أو للإغريق حسداً من عند أنفسهم وحقداً على العرب والمسلمين، ناسين أن عقلية العالم لا بد أن تكون عقلية صادقة واضحة وخاصة في مجال الدراسات العلمية الصرفة كالفيزياء والكيمياء، ولكن هكذا كانت حالة أعداء الإسلام في إنكار تفوق المسلمين العلمي وفضلهم على العالم أجمع إلى يوم الدين. ومع هذا فإننا نجد من المستشرقين من يثبت الحقيقة ويقول الحق لأنه يرى الحقائق ناصعة لا مراء فيها وتفرض عليه أن يكون على مستوى العلم والعلماء، فمن هؤلاء العلماء «لوبون» حيث يقول: (ضاعت كتب العرب المهمة في الفيزياء ولم يبق منها غير أسمائها ككتاب الحسن بن الهيثم في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة وفي المرايا المحرقة ومع ذلك فإننا نستدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء من العدد القليل الذي وصل إلينا منها ولا سيما كتاب الحسن في البصريات الذي نقل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية فاستعان «كيبلر» به كثيراً في كتابه عن البصريات، ويرى القارىء في كتاب الحسن فصولاً دقيقة عن حرارة المرايا ومحلّ الصور الظاهرة في المرايا وانحراف الأشياء وجسامتها الظاهرة. . الخ. ويرى فيه على الخصوص حلاً هندسياً للمسألة الآتية التي تتعلق بمعادلة من الدرجة الرابعة وهي (إذا علم موضوع نقطة مضيئة موضع العين فكيف تجد على المرايا الكروية والاسطوانية النقطة التي تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها؟ فعدّ مسيو «شال» الذي هو حجة في هذه الموضوعات هذا الكتاب «مصدر معارفنا فيالبصريات»[1].

---

(١) لوبون ص ٤٧٢

ومن العلوم التي نبغ المسلمون فيها واستخدموا فيها الآلات تدل دلالة واضحة على القدر العظيم الذي وصلوا فيه هو علم الميكانيكا مما استفاد منه الغرب كثيراً وشهد بذلك علماؤهم ولهذا (رأى الدكتور أ. برنارد الأكسفوردي أن العرب هم الذين طبقوا الرقاص على الساعة غير أن ما أبداه من الأسباب لا يكفي على ما يظهر لإسناد هذا الاختراع المهم إلى العرب والذي نرجحه هو أن الساعة الدقاقة التي أرسلها هارون الرشيد إلى شارلمان هي ساعة مائية تدق في كل ساعة بسقوط كراتها النحاسية على قرص معدني).

ولكن الذي لا ريب فيه هو أن العرب عرفوا الساعات ذات الأثقال التي تختلف كثيراً عن الساعات المائية ودليلنا على ذلك ما وصفت به ساعة الجامع الأموي الشهيرة في كتب كثير من المؤلفين ولا سيما «بنيامين التطيلي» الذي زار فلسطين في القرن الثاني عشر من الميلاد وقد اقتطعنا الوصف الآتي من ترجمة مسيو «سلفستر دوساس» لابن جبير.

قال ابن جبير:

«وعن يمين الخارج من باب جيرون في جوار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبّرت تدبيراً هندسياً فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصوّرين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازين يمدّان عنقيهما بالبندقتين إلى الطاستين. . ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند انقضاء ساعة من النهار، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأول، ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرّمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في

الغرفة يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرّة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمرّ الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها ويعيد فتح الأبواب وصرف الصنوج إلى مواضعها»[١].

(١) لوبون ص ٤٧٣

المبحث الرابع

الكيمياء عند المسلمين

والكيمياء شأنها شأن سائر العلوم عمل المسلمون جهدهم في معرفة خواص المواد وتركيبها ولم يكن عند من سبقهم إلاّ قليل من العلم لا تتحقق به الأغراض العلمية ولا يوصل إلى الحقائق ولا يساعد على النهضة العلمية ومع هذا فقد حاول البعض أن يلغي أو يقلل من أهمية هذا العلم عند المسلمين وتفوقهم ولكن الحقائق الشمسية لا يمكن أن تصرف عن العيون المبصرة وأما العمياء فهي لا ترى تلك الحقائق وإن قربت من سويدائها.

ولهذا يقول لوبون «والمعارف التي انتقلت من اليونان إلى الغرب في الكيمياء ضعيفة ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركّبات المهمة كالكحول وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) وماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب وما إلى ذلك وقد اكتشف العرب أسس الكيمياء كالتقطير»[1].

لقد بَيَّنَّا كيف يراد طمس الحقائق والحرص على عدم نسبة أي علم أو خير للمسلمين مستخدمين كافة الطرق ومختلف الحيل وهذا من سوء الخلق خاصة بالنسبة للعلماء الذين يفترض فيهم الصدق والسعي وراء الحقيقة، ولهذا يقول لوبون (قال بعض المؤلفين إن «لافوازيه» واضع علم الكيمياء، وقد نسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ومنها علم الكيمياء صادر ابتدائه دفعة واحدة وأنه وجد عند العرب من المختبرات وما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته بغيرها).

وفضل علماء المسلمين قد اعترف به أهل العلم من المستشرقين ممن يريد معرفة الحقيقة رغم أن أكثر كتب الكيمياء عند المسلمين قد ضاعت في متاهات التاريخ والخطوب من الأحداث والهجمات المتعددة عليهم.

---

(١) لوبون ص ٤٧٤- ٤٧٥

(ودرس أكثر علماء العرب الذين ألفوا في مختلف العلوم مسائل الكيمياء وضاع أهم كتب الكيمياء العربية خلا مؤلفاه جابر والرازي فنأسف على ذلك بعد أن تجلت لنا قيمة ما هو بين أيدينا منها)[1] ورغم كثرة علماء المسلمين في الكيمياء وتعدد مؤلفاتهم ولكن بسبب ما ذكرناه من ضياع كثير منها، فإن الذي اشتهر بذلك جابر بن حيان الذي أثبت بعلمه الغزير ومكتشفاته الكثيرة النادرة أن علم المسلمين في الكيمياء أمر واضح معروف استفاد منها رواد النهضة الأوروبية الحديثة، فلهذا يرى «لوبون» (أن أقدم علماء العرب في الكيمياء وأكثرهم شهرة هو جابر الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد الذي ألف كتباً كثيرة فيها ولكنه نشأ عن كثرة من تسموا باسمه من معاصريه صعوبة تمييز ما يجب نسبته إليه منها ونقل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية وقد نقل كتابه (الاستتمام) الذي هو من أهم كتبه إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٦٧٢ فدل هذا على دوام نفوذه العلمي في أوروبا مدة طويلة. ويتألف من كتب جابر موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركّبات الكيميائية التي لم تذكر من قبله كماء الفضة (الحامض النتري) وماء المهمّين اللذين لا نتصور علم الكيمياء بغيرهما)[2].

واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيمياوية التي كانت مجهولة قبله كماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب والبوتاس وملح النشادر وحجر جهنم (نترات الفضة والسليماني والراسب الأحمر)، وكان جابر أول من وصف في كتبه أعمالاً أساسية كالتقطير والتصعيد والتبلور والتذييب والتحويل. . . . إلخ.

واكتشف العرب أيضاً مركبات أخرى لا غنى للكيمياء والصناعة عنها كزيت الزاج (الحامض الكبريتي) والكحول وكان الرازي المتوفى سنة ٩٤٠م أول من وصفها فقال:

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) لوبون ص ٤٧٥.

(إن زيت الزاج يستخرج بتقطير كبريت الحديد وأن الكحول يستخرج بتقطير المواد اللبّية أو السكرية المختمرة). ولما ذكر من اكتشافات مجهولة فيمن كان قبلهم في علم الكيمياء والمركبات الحديثة التي عرفوها فلهذا قال (ويظهر لنا مدى اكتشافات العرب الكيمياوية من كثرة ما كان مجهولاً قبلهم من المركبات التي ذكروها في مؤلفاتهم الطبية وابتدع العرب فنّ الصيدلة ويبدو لنا مقدار معارفهم في الكيمياء الصناعية من حذقهم لفنّ الصباغة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ ودباغة الجلود. . إلخ)[١].

---

(١) لوبون ص ٤٧٦- ٤٧٧، وانظر (العالم العربي) ص ٦٢ نقلا.

المبحث الخامس

علم الزراعة عند المسلمين

وأنه لما هو ثابت أن المسلمين كان لهم علم بالزراعة وقد أدخلوا في البلدان المفتوحة أنواعاً من النباتات والأشجار كما ألفوا في الزراعة كتباً كان لها أثر في تطوير علم الزراعة في أوروبا وقصة العرب مع الأمم الأخرى هي قصة الحضارة وازدهارها (وقصة العرب في اسبانيا هي فصل من تاريخهم ينظرون إليه حتى اليوم بالفخر والحنين. ولم يكد يتم الفتح حتى استقر القاهر والمقهور في حياة من التعاون المثمر ودخل العرب بشغف في حياة البلاد التي أتوا إليها بذخيرة من النشاط ومجموعة كبيرة من الصناعات فازدهرت الأرض وكثر سكانها وانتعشت الزراعة والصناعة والتجارة انتعاشاً لا عهد لها به.

ومما يدل على تقدم الزراعة علماً وتطبيقاً ما كتبه ابن العوّام وهو عربي من إشبيلية في القرن الثاني عشر أهم كتاب زراعي في القرون الوسطى وهنا كما في صقلية جاء العرب بنباتات جديدة منها القطن وقصب السكر والأرزّ وعدد من أشجار الفاكهة كالمشمش والدراق والرمان ومجموعة من الحشائش والأعشاب العطرية وأكثرها انتشاراً الزعفران ونهضت صناعة الحرير بإدخال تربية دود القز وانتعشت من جديد غابات الزيتون التي كانت معروفة لدى الرومان كل ذلك بفضل إنشاء وتعهد شبكة الري كثيرة الفروع واسعة النطاق.

ويمثل الجغرافيون المعاصرون إسبانيا بحديقة مترامية الأطراف تكسوها أشجار الفاكهة والأزهار وقد أثبت المؤرخون الحديثون ما رواه أولئك[١].

---

(١) العالم العربي ص ٧٢.

المبحث السادس

العلوم الجغرافية عند المسلمين

أ- دراسة تحقيقية في السياحة والرحلة وتدوين المشاهد

لقد حث الإسلام على السياحة في الأرض والتفكر في خلق الله تعالى ليكون ذلك سبباً في العلم وزيادة الإيمان واليقين، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولهذا وجدنا المسلمين ومنهم العلماء جابوا الأرض وزاروا البلدان ووصفوها رغم ضعف واسطة النقل والمخاطر التي يواجهونها في أسفارهم مما هو مدوّن في كتب الرحالة.

يقول «لوبون» (ريادات العرب الجغرافية):

كان العرب من السيّاح المقاديم في كل وقت وكانوا لا يخشون المساوف والمراحل واليوم أيضاً نراهم يأتون مكة من أقصى البقاع ويجوبون بقوافلهم داخل إفريقيا كأمر بسيط فيصادفهم فيها الأوروبيون الذين لا يبلغونها إلاّ بشق الأنفس.

وكان للعرب منذ السنين الأولى من قيام دولتهم علائق تجارية بما كان الأوروبيون يشكون في وجوده من البلدان كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل إفريقيا.. إلخ.

وممن اشتهر في السياحة وتدوين أحوال البلدان الناصر سليمان في سياحته لبلاد الصين فقد أبحر سليمان من مرفأ سيراف الواقع على الخليج العربي حيث كانت تكثر المراكب

الصينية وجاوز المحيط الهندي وبلغ شواطىء بلاد الصين وكتب رحلته في سنة ٨٥١م ثم أكمل أحد أبناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة سنة ٨٨٠م وأضاف إليها معارف أخذها عن عرب زاروا بلاد الصين وكتاب سليمان الذي نقل إلى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير هو أول مؤلف يُنشر في بلاد الغرب عن الصين.

وإذا كان سليمان باحثاً عادياً فغير ذلك شأن المسعودي[1] الشهير الذي ولد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد فقد قضى المسعودي خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وقيّد ما شاهده في تآليفه الكثيرة المهمة التي نعدّ «مروج الذهب» أشهرها قال المؤرخ العربي العلامة ابن خلدون الذي ذكرناه غير مرة والذي ظهر بعد المسعودي بأربعمئة سنة ما يأتي:

«فأما ذكر أحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تبنى عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلثمائة (٩٤١) غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرّق شعوب العرب والعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم».

وقد تقدم هذا العلم وتابع فيه العلماء جهودهم حيث ظهر ابن حوقل حيث يقول: (قد عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحال الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضع ذلك الإقليم ثم

---

(١) وسمى سارتن النصف الأول من القرن العاشر باسم المسعودي المؤرخ والجغرافي «بلينوس العرب» والنصف الثاني باسم أبي الوفاء الفلكي الرياضي. وكان هذا القرن عصر نشاط فلسفي عظيم وكان إمام فلاسفة العصر الفارابي. العالم الغربي ص ٦٤.

ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما في أضعافها من المدن والأصقاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج إلى معرفته من جوامل ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوده الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات، إن ذلك علم يتفرد به الملوك والساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات).

ومثل هذا يصدق على البيروني الذي رافق السلطان محمد الغزيوي في حملته على الهند سنة ١٠٠٠م ونشر ما شاهده في بلاد السند وشمال الهند وحاول البيروني أن يصحح خريطة تلك البلاد مستنداً إلى حسابه الفلكي.

وكذلك أو حسن الفلكي وابن بطوطة الذي بدأ بسياحته سنة ١٣٢٥م وبلغت سياحته أربعاً وعشرين سنة مسافراً من مدينة طنجة المراكشية ومجولاً في أفريقيا ومصر وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب إلى مكة وفي روسيا الجنوبية والقسطنطينية... إلخ. والذي ذهب إلى بلاد الهند ماراً من بخارى وخراسان وقندها فبلغ مدينة دهامي التي كانت من العواصم الإسلامية والتي أوفده سلطانها إلى عاهل الصين فانتهى إلى بلاد الصين بحراً وقد زار في طريقه إلى الصين سيلان وسومطرة وجاوة ووصل إلى المدينة التي تعرف ببكين في الوقت الحاضر ثم عاد إلى وطنه بطريق البحر.

ب-التقدم الذي حققه العرب في الجغرافيا

ولقد حقق علماء المسلمين تقدماً كبيراً في علم الجغرافيا مما يشهد له ما دونوه في كتبهم وما وصلوا إليه من حقائق وما صححوه من قضايا عند «بطليموس» وغيره وما توصل إليه اليونان قبلهم وهكذا نجد «لوبون» يلخص ذلك فيقول:

(كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدم مهم، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ولا سيما «بطليموس» أدلاءهم في علم الجغرافيا لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم.

كانت مواضع المدن الكثيرة التي عينها «بطليموس» تعييناً جغرافياً غير مطابقة للحقيقة تماماً وبلغ مقدار غلطه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ.

ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها الأغارقة والأمكنة التي عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم والذي تم على يد العرب فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يقرب من الصحة مما لا يزيد على بعض دقائق وإن خطأ الأغارقة بلغ درجات كثيرة. حقاً إن أغاليط الأغارقة في تعيين الطول كانت فاحشة في بعض الأحيان ومنها أن غلط بطليموس الذي اتخذ الأسكندرية مبدأ للطول فهي طول طنجة نحو ١٨ درجة فجعلة ٥٣ درجة و٣٠ دقيقة بدلاً من ٣٥ درجة و٤١ دقيقة ومنها أن جعل بطليموس في تقاويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة إلى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة على الحقيقة أي ما يعادل أربعمئة فرسخ تقريباً مع أن غلط تقاويم العرب فيه أقل من درجة واحدة.

وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافيا مهمة للغاية وكان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوروبا قروناً كثيرة.

ويذكر من الجغرافين النضر البصري الذي ألف كتابه سنة ٧٤٠م والإصطخري في كتابه الأقاليم أواسط القرن التاسع من الميلاد والمسعودي والمقدسي ٩٨٥م.

وأشهر جغرافيي العرب هو الإدريسي ومن كتب الإدريسي التي ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا علم الجغرافيا في القرون الوسطى. ولد الإدريسي في الأندلس ثم ساقت الإدريسي مغامرات كثيرة إلى بلاط ملك صقلية «روجر» بعد أن استولى النورمان عليها بزمن قصير. ولما كانت سنة ١١٥٤م ألف الإدريسي كتابه الجغرافي العظيم مشتملاً على ما قيده المتقدمون في علم الجغرافيا وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عدة خرائط فاقتصرت أوروبا على نسخة منها مدة ثلاثة قرون.

وخريطة الإدريسي التي نشرت صورتها والتي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوروبيون إلاّ في العصر الحاضر أكثر خرائطه طرافة فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية إفريقيا أعظم مما ظن زمنا طويلاً.

وأذكر من جغرافيي العرب القزويني وياقوت الحموي اللذين عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد وإن كتاب هذا الأخير معجم حغرافي حافل بوثائق عن جميع البلدان التي تتألف منها دولة الخلافة. وعرف صاحب حماه أبو الفداء (١٣٧١- ١٣٣١م) بأنه من علماء الجغرافيا أيضاً. ويحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما ألفوا من الكتب إلى بيان طويل فقد ذكر أبو الفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله[١].

ويذكر ما يكمن في نفوس بعض الغربيين من حقد موروث وكراهية للعرب والمسلمين ما جعلهم ينكرون فضل العرب في الجغرافيا وغيرها وإنما يهدفون في ذلك إلى جعل المسلمين يشعرون بعدم الأصالة العلمية في تاريخهم ويبغون من ذلك إلى التأكيد على تبعية الشرق الإسلامي في كل شأن للغرب فيقول:

وتكفي الخلاصة السابقة لإثبات شأنهم مع ذلك ولولا إصرار الأوروبيين الخاص على مبتسراتهم الموروثة التي لا تزال باقية حيال الإسلام لتعذر إيضاح السبب في إنكار علماء أفاضل في الجغرافيا كمسيو «فيفيان دوسان مارتن» لذلك الشأن ومع ذلك يكفي ما أوتي به العرب من عمل كبير لإثبات قيمتهم[٢].

ويوضح ثمرات علماء المسلمين مما لم يصله العلماء من أقوام آخرين لشاهد على فضلهم «فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في المواضع، والعرب من ناحية الريادة هم الذين

(١) لوبون ص ٤٦٩- ٤٧١.

(٢) ص ٤٧١.

نشروا رحلات عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها فضلاً عن عدم وصولهم إليها والعرب من ناحية الأدب الجغرافي هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التي ألفت قبلها فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قروناً كثيرة»[١].

ج- استخدام البوصلة في الملاحة:

لو استقصينا علوم المسلمين واطلعنا على كل المخطوطات العربية لوجدنا للمسلمين فضلاً عظيماً في مجالات علمية متعددة ورغم أن البوصلة على ما يذكر من اختراع الصينيين لكن الثابت أن العرب أول من استخدم تلك البوصلة في الملاحة يقول «لوبون»[٢]: «البوصلة من اختراع الصينيين ولكنه لم يقم دليل على استخدامهم لها في الملاحة وكان الصينيون من ضعاف الملاحين ولم يبتعدوا في أسفارهم البحرية عن الشواطىء فكانت البوصلة قليلة النفع لهم.

وغير ذلك كان شأن العرب الذين هم من أعاظم الملاحين والذين كانت صلاتهم ببلاد الصين الواسعة كثيرة أيام شك الأوربيون في وجودها فكان من الراجح أن يكونوا أول من استخدم البوصلة في الملاحة ولكن هذا لا يخرج عن حدّ الافتراض الذي لا يجوز الإصرار عليه لعدم قيامه على دليل.

وإنما الذي لا ريب فيه هو أن الأوروبيين أخذوا هذا الاختراع المهم عن العرب الذين كانوا وحدهم ذوي صلات بالصين والذين كانوا وحدهم قادرين على إطلاع الغرب عليه، لهذا السبب ومع ذلك فقد مرّ بعض الزمن على الأوروبيين قبل إدراك فائدته لم يستخدموه قبل القرن الثالث عشر من الميلاد مع أن الإدريسي الذي تكلم عنه في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد ذكره على أنه كثير الشيوع بين بني قومه.

---

(١) ص ٤٧١

(٢) لوبون ص ٤٨٣، ٤٨٤.

المبحث السابع

علم الفلك عند المسلمين

وقد تنبه كثير من علماء الغرب المستشرقين إلى ما كان عليه المسلمون في علم الفلك وما عملوه من مراصد وما أثبتوه من تعيين مدة السنة وقياس انحراف سمت الشمس وقياس خط نصف النهار ووضع التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة وتعيينهم بالضبط مبادرة الاعتدالين.

وقد صدر ذلك أحدهم في قوله (علم الفلك عند العرب).

علم الفلك هو أول ما اعتُني به في بغداد ولم يدرس العرب وحدهم مسائله بل سار على طريقهم وارثوهم أيضاً ولا سيما حفيد «تيمورلنك» أولوغ بك الشهير بزيجه والذي يمكن عدّه المثل الأخير لمدرسة بغداد زمن ازدهارها سبعة قرون (٧٥٠م-١٤٥٠) وكانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك ولكنها لم تكن مركز هذه المباحث الوحيد فالمراصد التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلنطي كثيرة ومنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة.. إلخ. وقد ذكر عدد من الفلكيين الذين اشتهروا في العالم الإسلامي والذين أبدى خلفاء المسلمين تشجيعهم وإكرامهم منهم البتاني الذي عاش في القرن التاسع وتوفي سنة ٩٢٩م ووضع لالاند الشهير البتاني في صف الفلكيين العشرين الذين عدّوا أشهر علماء الفلك في العالم وكذلك «أماجور وانبه» اللذان قاما برصد بين سنة ٨٨٣م وسنة ٩٣٣م أرياجاً وأبناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين عاشوا في القرن التاسع من الميلاد الذين وضعوا تقاويم لأمكنة النجوم السيارة وقاسوا عرض بغداد في سنة ٩٥٩ وقيدوه ٣٣ درجة و٢٠ دقيقة أي برقم يصح بعشر ثوان تقريباً.

وأبو الوفاء المتوفى ببغداد سنة ٩٩٨م الذي عرف الاختلاف القمري الثالث الذي عثر عليه في كتابه العربي المهم وقد عزي هذا الاكتشاف بعد ستمائة سنة إلى (تيخو براهه)[١] وقد استدل به مسيو «سيديو» على وصول مدرسة بغداد في أواخر القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن علم الفلك أن يصل إليه بغير نظارة ومرقب وكان مجهزاً بآلات متقنة فقد شاهد انحراف سمت الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدماً أي يبلغ من الاتساع ما يعد كبيراً في المراصد الحديثة[٢].

ومن ابتداء العرب المسلمين بعلم الفلك وقيام دولة الخلافة في إغنائهم بما يحتاجونه ورغم الهجمة التترية المعروفة فقد استطاع المسلمون بعلمهم وأخلاقهم أن يغيّروا أحوال الغزاة وأن يجعلوهم ينهجون نهجاً علمياً بناء لإتمام السيرة العلمية التي بدأوها (ولم يكن المغول أقل اعتناء بالعلماء من السلجوقيين فقد استدعى هولاكو خان في سنة ١٢٥٩م أفضل علماء العرب إلى بلاطه وأقام في بلاطه مرصداً كبيراً نموذجيا ولم يلبث كوبلاي خان الذي هو أخ لهولاكو أن نقل إلى بلاد الصين التي افتتحها كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك، واليوم نعلم أن فلكيي الصين ولا سيما كوشوكنغ (١٢٨٠م) استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ولذا نقول أن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله بالحقيقة[٣] وبعد ذكر ما قدمه العلماء العرب في الأندلس وإفريقيا وغيرها وذكر آلة الاسطرلاب ووصفه واستعماله قال:

---

(١) إن خطة البعض من المستشرقين الحاقدين على الإسلام أن ينسبوا كثيراً منم الحقائق العلمية والاكتشافات الهامة إلى غير المسلمين أو أن يترجموا الكتاب العربي إلى اليونانية ثم يترجموه إلى اللغة الإنجليزية أو غيرها وينسبوه لمؤلف يوناني وأما ادعاء بعض الفرضيات العلمية أو الحقائق لأنفسهم فقد أشار السيد فؤاد سزكين إلى هذه الوقائع في ألمانيا في كتابه التراث الإسلامي.

(٢) لوبون ص ٤٥٦- ٤٥٨.

(٣) لوبون ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

وتلخص اكتشافات العرب الفلكية بما يأتي: إدخال المماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر من الميلاد ووضع أزياج لحركات الكواكب وتعيين دقيق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجي وتقدير مبادرة الاعتدالين بالضبط وتحديد صحيح لمدة السنة وتحقيق لشذوذ أعظم عرض للقمر وكشف للاختلاف القمري الثالث المعروف بالاختلاف في الوقت الحاضر والذي (قيل تيخو براهة) اهتدى إليه في سنة ١٦٠١م لأول مرة[١].

---

(١) لوبون ص ٤٦٣-٤٦٤.

الفصل العاشر

العلوم التطبيقية والصناعات والاكتشافات

المبحث الأول

الاكتشافات

لم يكن علماء المسلمين ليقفوا عند ما وصلوا إليه من حقائق علمية في المجال النظري فحسب بل قد علموا مبادىء دينهم أن الثمرة إنما تكون في التطبيق سواء في مجال العبادات أو المعاملات أو العقائد أو غيرها ولهذا نجدهم يحاولون الاستفادة من مكتشفاتهم في مجال الدفاع عن العقيدة الإسلامية والذود عن حياض الأمة والحفاظ على البلاد من الأعداء كما أنهم استفادوا منها في صناعات كثيرة مفيدة، استفاد منها من جاء بعدهم في تطوير تلك الصناعات وتحسينها ولهذا يقول لوبون (المعارف الصناعية لم يهمل العرب أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية وكان لصناعات العرب تفوق عظيم بفضل معارفهم العلمية ونعلم ما أدت إليه صناعتهم من النتائج وإن جهلنا أكثر طرقها فنعرف مثلاً أنهم كانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب وأنهم كانوا ماهرين في الدباغة وفي فن تسقية الفولاذ كما تشهد بذلك نصال طليطلة وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وجلودهم وورقهم شهرة عالمية وأنه لم يسبقهم أحد في كثير من فروع الصناعة إلى عصرهم[١] ولهذا نجد بعض المستشرقين لم يقبلوا الأمر بالنسبة لمعارف المسلمين عن جحد وتعالٍ وتكبر، من ذلك - بارود الحرب والأسلحة النارية- استعملت أمم آسيا أنواع المركبات المحرقة في حروبها منذ القرون القديمة ولكن أوروبا لم تعرف هذه المركبات إلا في القرن السابع من الميلاد ويظن أن الذي نقلها من آسيا هو مهندس معماري

---

(١) لوبون ص ٤٧٧.

اسمه «كالينيك» أخذها عن العرب واستفاد البيزنطيون استفادة عظيمة من هذه المركبات في دحر العرب حينما وضعوا نطاقاً أمام القسطنطنية وأمر القيصر قسطنطين بورفير وجينيت بعدِّها من أسرار الدولة ولم تلبث أن كشفت وأسفرت مباحث رينوو فافيه عن القطع بأن هذه المركبات التي وصفت في كثير من المخطوطات القديمة مؤلفة من الكبريت وبعض المواد الملتهبة كبعض الراتنجات والأدهان)[١] مما يدل أنهم أخذوه عن العرب.

(١) لوبون ص ٤٧٧

المبحث الثاني

العلوم التطبيقية

والنار اليونانية لم تكن سوى نار محرقة ولكنها لم تكن في تكوينها صالحة لدفع القذائف المحرقة وكذا لم تكن ذات قابليات عظيمة محرقة كما كانت عليه النار التي استعملها المسلمون في حروبهم المتعددة ضد أعداء الإسلام ولهذا يقول لوبون (ولسرعان ما عرف العرب تركيب النار اليونانية وبلغت هذه النار من الانتشار عندهم ما صارت معه «عامل الهجوم المهم» كما قال ذلك المؤلفان (وتفنن العرب في استخدامها والقذف بها بشتى الطرق وليس بمجهول خبر الرعب الذي ألقته في قلوب الصليبيين فورد ذكره في أحاديثهم ومن ذلك أن أعلن «جوانفيل» أنها أفظع شيء رآه في حياته وأنها ضرب من التنانين الكبيرة الطائرة في الهواء ولما أصبح جوانفيل في جوار الملك سان لويس «ركع ورفع يديه إلى السماء وقال باكياً: أي ربنا يسوع احفظنا واحفظ قومنا» فالنار اليونانية وإن كان يقذف بها لم تنفع لرمي القذائف وهي وإن كانت من المحترقات لم تكن لها خواص البارود في الانفجار[1].

وسنظل نتابع إنكار الحقائق ونسبة العلم إلى غير أهله في أكثر مباحثنا لأن الذين في قلوبهم مرض لا تطيب نفوسهم إلاّ في الإنكار والتزوير ونسبة الحقائق إلى غير أهلها - وهنا روجر ينسبون اختراع البارود إليه بيكون:

وعزي اختراع البارود إلى روجر بيكون زمناً طويلاً مع أن روجر بيكون لم يفعل غير ما فعله ألبرت الكبير من اقتباس المركبات القديمة ولا سيما ما وصفه منها مركوس غراكوس في مخطوط كتب سنة ١٢٣٠م بعنوان (كتاب النار لإحراق الأعداء) والحق أن كثيراً من هذه المركبات يشابه تركيب البارود ولكنه كان يستعمل من الأسهم النارية فقط وهو مقتبس من

---

(١) لوبون ص ٤٧٨.

العرب لا ريب كجميع المركبات الكيمياوية في القرون الوسطى والعرب هؤلاء قد عرفوا الأسلحة النارية قبل النصارى بزمن طويل كما يأتي بيانه[١].

وهكذا تظهر الحقائق على لسان غير المسلمين من إثبات حقيقة الأمر وبيان فضل العرب في ذلك حين تتبعوا المصادر وتبينوا الحقائق (فأثبتت مباحث مسيو رينو ومسيو فافيه وقد سبقهما إليها الغزيري واندره وفياردوا أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار الدافع للقذائف وبيان ذلك: أن ذلك المؤلفين يريان في بدء الأمر كما رآى غيرهما أن أمر الاختراع يعود إلى الصينيين وأنهما رجعا في مذكرة ثانية نشراها سنة ١٨٥٠م وذلك بعدما اطلعا على ما جاء في بعض المخطوطات التي عثر عليها حديثاً عن رأيهما معلنين أن العرب هم أصحاب هذا الاختراع العظيم الذي قلب نظام الحرب رأساً على عقب ومما قال ذلك المؤلفان: «أن الصينيين هم الذين اكتشفوا ملح البارود واستعملوه في النار الصناعية وأن العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة أي أن العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية»[٢].

ويقول المؤرخ الفرنسي لاريل في كتابه مدنية الإسلام بإسبانيا فقد اعترف بمزايا المسلمين في الصناعة والزراعة والبناء وخصائص الهندسة العربية وقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع النارية في أوروبا وأنهم فاقوا الغربيين في جميع الفنون[٣] وجرى المؤرخون على الرأي القائل أن المعركة الأولى التي استعملت فيها المدافع هي معركة كريسي التي حدثت سنة ١٣٤٦م والحقيقة ما أثبته مؤرخو العرب في مؤلفاتهم من النصوص الكثيرة التي تدل على أن استعمال المدافع وقع قبل تلك السنة بزمن طويل ومن ينظر إلى المختارات

---

(١) لوبون ص ٤٧٨.

(٢) لوبون ص ٤٧٨-٤٧٩.

(٣) الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني، أنور الجندي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة - الكتاب(١٩) ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م وسنرمز له - الجندي - نقلاً عن خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان ص ٣٦٥.

المقتطفة من المخطوطات التي ترجمها «كونده» يجد على الخصوص أن الامير يعقوب حاصر زعيم ثوار مدينة المهدية بإفريقا في سنة ١٢٠٥ وأنه (ضرب أسوارها بمختلف الآلات والقنابل أي ضربها بآلات لم يرها الناس قبل ذلك فكانت كل واحدة منها ترمي قذائف كبيرة من الحجارة وقنابل من الحديد فتسقط في وسط المدينة).

ونرى ذلك صريحا في تاريخ ابن خلدون عن البربر حيث ذكر استعمال المدافع في الحصار بقوله: «ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجّه عزمه إلى افتتاح سجلماسة (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وإدالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب سنة اثنين وسبعين فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناته والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر، ونصب عليها آلات الحصار من النجانيق والعرّادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تردّ الأفعال إلى قدرة بارئها فأقام عليها حولاً يغاديها القتال ويراوحها إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليها فبادروا إلى اقتحام البلد فدخلوه عنوة من تلك الفرجة». وتثبت مخطوطات ذلك الزمن أن الأسلحة النارية شاعت بين العرب بسرعة وأنهم استخدموها للدفاع عن مدينة الجزيرة التي هاجمها الأذفونشي الحادي عشر (أن مغازية المدينة كانوا يقذفون كثيراً من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير وذلك إلى مسافة بعيدة من المدينة فيمرّ بعضها فوق الجيش ويسقط بعضها عليه) وحضر كونت دربي وكونت سالسبري الإنجليزيان ذلك الحصار وشاهدا نتائج استخدام البارود ونقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم من فورهم واستخدمه الإنجليز في معركة (كريسي) بعد ذلك بأربع سنين. ونجد في المخطوطات العربية بياناً لتركيب ما كان العرب يستخدمونه من البارود والأسلحة النارية وإليك النص الطريف الذي ورد في مخطوط كتب في أواخر القرن الثالث عشر من الميلاد فترجمه «رينو»:

(وصف للذخيرة التي تدك في المدافع مع بيان نسبتها - تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف من الكبريت وتسحق حتى تصبح كالغبار منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفزاره ويصنع الخرّاط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تناسب جسامته فوهته وتدكّ الذخيرة فيه بشدة ويضاف إليها إما مبدق وإما نبل ثم تشعل ويكون قياس المدفع مناسباً لثقبه فإذا كان عميقاً أكثر من اتساع الفوهة بدا ناقصاً)[1].

(١) لوبون ص ٤٧٩- ٤٨١.

المبحث الثالث

صناعة الورق

لقد كان المسلمون بحسن تفكيرهم ودقة فهمهم وذكائهم المتوقد يبحثون دائماً عن أفضل الوسائل في الحصول على الحقيقة العلمية وأيسر الطرق في تسجيلها والحفاظ عليها حيث وجدوا الحاجة الماسة إلى سجلات يدونون فيها ما يرغبونه ويحتاجون إليه وحيث أن الرق يصعب الحصول عليه وهو غالٍ ولا يفي بالغرض في خضم الحضارة المتجددة فقد استطاعوا أن يخترعوا الورق وكان لاختراعهم هذا الفضل الكبير، فلقد (كان الأوروبيون في القرون الوسطى يكتبون على الرقوق لزمن طويل وكان غلاء أسعارها مانعاً من توافر المخطوطات فيها ونشأ عن ندرتها أن تعوّد الرهبان حك كتب كبار المؤلفين من اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية ولولا العرب لضاع أكثر هذه الكتب الرائعة القديمة التي زعم أنها حفظت في أروقة الأديار باعتناء. وكان اكتشاف مادة تقوم مقام الرق وتشابه بردى قدماء المصريين يعدّ من أعظم العوامل في نشر المعارف وتثبت المخطوطة التي عليها الغزيري في مكتبة الأسكوريال في سنة ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن والتي هي أقدم من جميع المخطوطات الموجودة في مكتبات أوروبا أن العرب أول من أحلّ الورق محل الرّق.

وليس من الصعب أن يصل الباحث في الوقت الحاضر إلى تاريخ اختراع الورق فمن الثابت أن الصينيين كانوا يعملون منذ القدم صناعة الورق من شرانق الحرير وأن هذه الصناعة أدخلت إلى مدينة سمرقند في أوائل التاريخ الهجري فلما فتحها العرب وجدوا فيها مصنعاً للورق الحريري ولكن اختراعاً مهماً كهذا لم يكن لينتفع به في أوروبا التي لم تعرف الحرير تقريباً إلاّ باستبدال مادة أخرى بالحرير وهذا ما أتاه العرب حين أقاموا القطن مقامه ولم يلبث العرب أن بلغوا في إتقان صناعة الورق من القطن شأواً لم يسبق كما دلّ عليه البحث في مخطوطات العرب القديمة)[1].

---

(١) لوبون ص ٤٨٢، وانظر العالم العربي، نجلاء عز الدين ص ٧٣.

ولئن كان بعض الباحثين يريدون أن يثبتوا لليونان أو لأوروبا فضل كثير في القضايا العلمية والصناعات الحديثة فقد أثبت المنصفون من الغرب فضل المسلمين في ذلك فذهب لوبون مثبتاً (أن العرب اخترعوا من الأسمال الورق الصعبة الكثيرة التراكيب ويستند في هذا الرأي إلى أن العرب استخدموا هذا النوع من الورق في زمن أقدم من الزمن الذي استخدمته فيه الأمم النصرانية بمدة طويلة فأقدم ورق موجود في أوروبا من هذا النوع هو ورق الكتاب الذي أرسله جوانفيل إلى الملك سان لويس قبيل وفاته في سنة ١٢٧٠م أي بعد حملته الصليبية المصرية الأولى مع أن لدينا ورقاً عربياً صنع من الأسمال قبل هذا التاريخ بنحو قرن كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونة والمكتوبة عليه معاهدة السلم بين ملك أرغونة الأذفونشي الثاني وملك قشتالة الأذفونشي الرابع في سنة ١١٨٧م والمصنوع في مصنع شاطبة العربي الشهير الذي امتدحه العالم الجغرافي الإدريسي في النصف الأول من القرن الثاني عشر من الميلاد.

ونشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس أيام سلطان العرب بما لم تعرفه أوروبا في ذلك الزمن أن اضطر العرب إلى زيادة مصانع الورق فانتهوا إلى صنعه بإتقان عظيم من القنّب والكتان الوافرين في الحقول في ذلك الحين)[1].

---

(١) لوبون ص ٤٨٣.

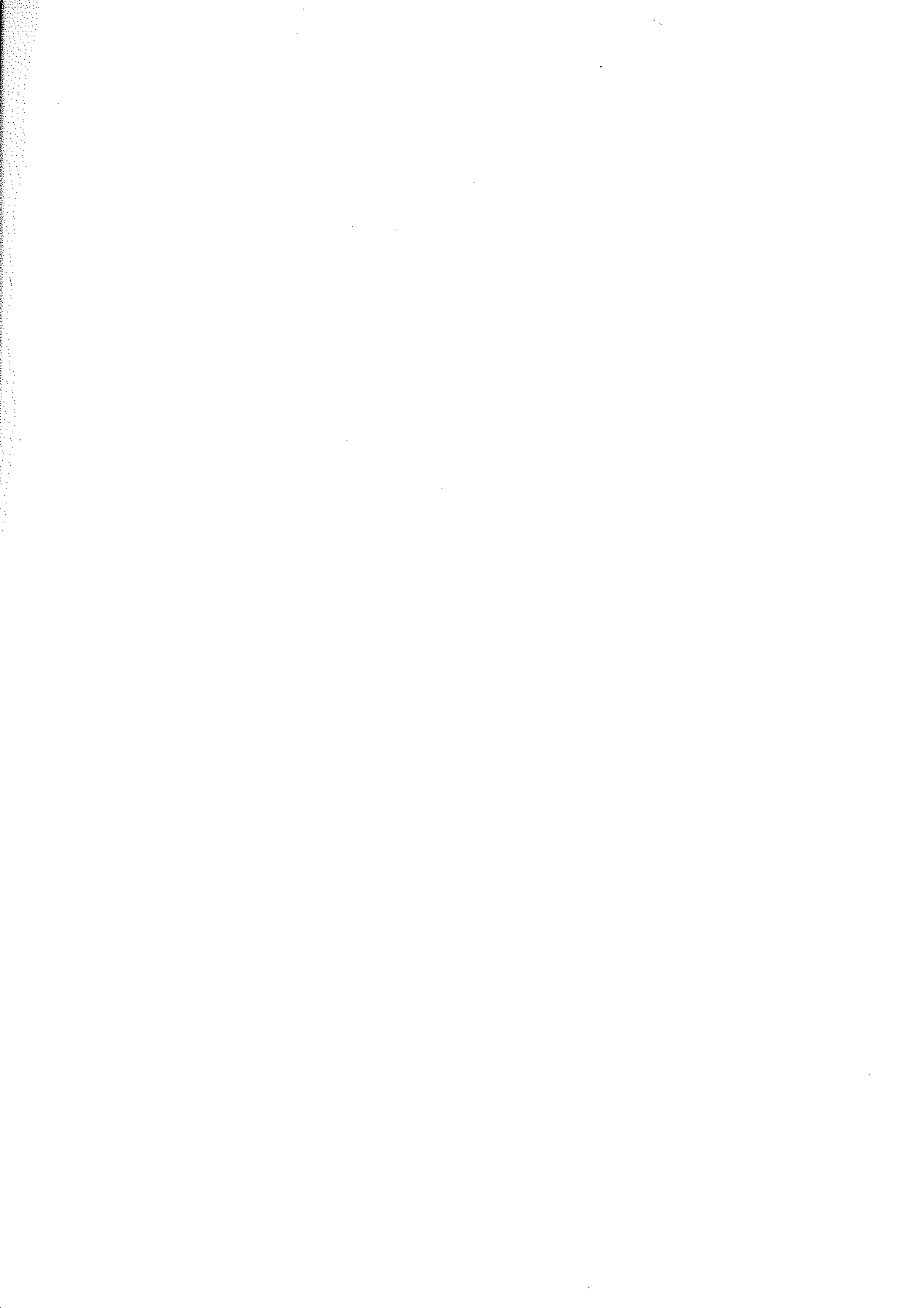
المبحث الرابع

الصناعات المتعددة

وكان للمسلمين من علم بالصناعات المتعددة غير ما ذكرناه مما يدل على شمول علمهم بها وإتقانهم لها وتفوقهم فيها وتأثر أوروبا بها وأخذهم للصناعات عنهم ولهذا فإن المهارة التي أعطت منتوجات دمشق والقاهرة وبغداد شهرتها ورواجها كانت جزءاً من الحضارة التي أتى بها العرب إلى إسبانيا فأسسوا عددا من الصناعات وأخرجوا منتوجات ذات قيمة فنية عظيمة منها المنسوجات والخزف وأشغال المعادن والأواني الزجاجية وتجليد الكتب وأشغال الجلد وحفر الخشب والميناء واستخدام الحرير المنسوج في إسبانيا لصنع ملابس الملوك وحلل الأساقفة. أما صناعة الخزف الشهيرة ومقرها الرئيسي بلنسية فقد كانت لها سوق واسعة، ومن إسبانيا دخلت هذه الصناعة إلى فرنسا وتوجد نماذج لها هي تقليد عنها شمالاً حتى هولندا. واشتهرت طليطلة بصناعة السيوف التي كانت تضاهي سيوف دمشق وقرطبة بالجلد الشهير بالقرطبي وازدهرت أيضاً الفنون الصغرى، ومن نتاجها ازدانت قصور أوروبا وكنائسها.[1].

---

(١)



فهرس مراجع ومصادر البحث

أولاً: المراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح الإمام البخاري.

٣- صحيح الإمام مسلم.

٤- فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

٥- سنن أبي داود.

٦- سنن الترمذي.

٧- سنن ابن ماجة.

٨- سنن النسائي.

٩- سنن الإمام أحمد.

١٠- موطأ الإمام مالك.

١١- الكشاف للزمخشري.

١٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

ثانياً: مصادر البحث

١- آراء المصلحين الاجتماعيين المصريين.

٢- الأرض المقدسة/ ابراهيم العلي - منشورات فلسطين المسلمة.

٣- الاستشراق الفرنسي المعاصر للأب / الدكتور ميشال آلار.

٤- الاستشراق والدراسات الإسلامية/ الدكتور عبد القهار العاني.

٥- الاستشراق أهدافه وآثاره/ الدكتور عبد القهار العاني.

٦- الإسلام في غزوة جديدة/ أنور الجندي.

٧- الإسلام والمستشرقون/ عالم المعرفة - جدة ١٩٨٥.

٨- الإسلام والرأسمالية/ مكسيم رودنسون - ترجمة نزيه حكيم.

٩- الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام/ عبد الله التل - المكتب الإسلامي بيروت.

١٠- التبشير/ أحمد خليل.

١١- التبشير والاستعمار في البلاد العربية / عمر فروخ والخالدي - المكتبة العصرية - بيروت.

١٢- التشريع الجنائي في الإسلام/ عبد القادر عودة.

١٣-تاريخ مدينة القدس/ معين أحمد محمود - دار الأندلس.

١٤- التفسير والمفسرون/ الدكتور محمد حسين الذهبي.

١٥- تاريخ التشريع الإسلامي/ كولسون ١٦.

١٦- جوانب إسلامية/ ماكدنولاد.

١٧ - **الحضارة الإسلامية**/ عبد الجليل شلبي.

١٨ - **حاضر العالم الإسلامي**/ نورثروب.

١٩ - **حضارة الإسلام**/ غوستاف لوبون.

٢٠ - **الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوروبية** - جامعة بيروت العربية.

٢١ - **الدعوة إلى الإسلام**/ ارنولد سير توماس / ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه -مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١.

٢٢ - **رسالة نحو النور**/ الدكتور مصطفى السباعي

٢٣ - **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**/ مصطفى السباعي.

٢٤ - **صور استشراقية**/ الدكتور عبد الجليل شلبي.

٢٥ - **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**/ ابن قيم الجوزية.

٢٦ - **الطريق إلى القدس** / د. محسن محمد صالح / منشورات فلسطين المسلمة.

٢٧ - **علوم الحديث** / الدكتور عبد الكريم زيدان والدكتور عبد القهار العاني.

٢٨ - **العقيدة والشريعة في الإسلام**/ كولد تسيهر ترجمة يوسف موسى وزميله طبعة مصر ١٩٤٨.

٢٩ - **فجر الإسلام** / أحمد أمين بيك.

٣٠ - **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** / د. محمد البهي.

٣١ - **في الأدب الجاهلي** / د. طه حسين.

٣٢ - **لمحات من الثقافة الإسلامية** / عمر عودة الخطيب.

٣٣ - **لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم** / شكيب أرسلان - طبعة القاهرة ١٣٤٩.

٣٤- **مناهج المستشرقين** / الدكتور مصطفى الشكعة.

٣٥- **المستشرقون والإسلام** / د. عرفان عبد الحميد.

٣٦- **مناهج المستشرقين** / محمد بن عبود.

٣٧- **مكايد يهودية** / عبد الرحمن حسن حبنكة - ط٣ / دمشق- دار القلم.

٣٨- **المستشرقون** / نجيب العقيقي -ط. دار المعارف القاهرة.

٣٩- **مذاهب التفسير الإسلامي** / كولد تسيهر - ترجمة عبد الحليم النجار ورفاقه.

٤٠- **المستشرقون بين الإنصاف والعصبية** / محمد علوي المالكي.

٤١- **مناهج المستشرقين** / د. مصطفى الأعظمي.

٤٢- **مناهج المستشرقين** / د. محمد السويسي.

٤٣- **مقالات رينان عن العلوم عند العرب وأفكاره.**

٤٤- **مجموعة الشرق الأوسط في مرحلة الانتقال** - لندن ١٩٥٨ هانز تونش.

٤٥- **مصر في أفريقيا والاوقيانوس**. جمعية التبشير الإنجيلية الباريزية ١٩٢٣.

٤٦- **موسوعة المستشرقين** / د. عبد الرحمن بدوي.

٤٧- **الوحي المحمدي** / محمد رشيد رضا.

٤٨- **وعد كيسنجر والأهداف الأمريكية في الخليج** / د. سفر الحوالي - مؤسسة الكتاب الإسلامي - دالاس/ أمريكا.

الصحف والمجلات

١- **مجلة العالم الإسلامي** .The Muslim World

فهرس الموضوعات